رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية

٩٠٩,٨

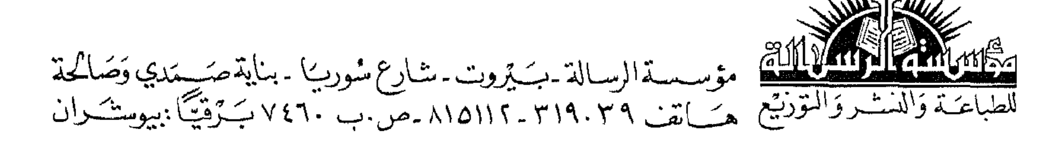
رحلـ رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠م ـ ١٩٥٠م المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا/ تقديم محمد عيسى صالحية. عمان: دار البشير للنشر، ١٩٩٢.

(٢٦٤) ص.

ر.أ (١٩٩٢/١/٢٢).

١ـ الجغرافية الطبيعية ـ رحلات ـ روسيا ٢ـ محمد علي صالحية، تقديم

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)


مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ شارع سوريا ـ بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ ـ ٨١٥١١٢ ـ ص.ب ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية

١٨٤٠م - ١٨٥٠م

المُسَماة

بتُحْفَة الأذكياء بأخبار بلاد الرّوسيا

قدّم لها وحرّرها

د. محمّد عيسى صالحيّة

جامعة اليرموك

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه وإهداء

العلّامة صلاح الدين عثمان هاشم، كان يطمح لتقديم هذا الكتاب لقُرّاء العربية تثميناً لجهود الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي أوّل عربي رعى مدرسة الاستشراق الروسية، وقد أوكلَ إليَّ مهمة البحث عن هذا الأثر، بعد أن تقلّبَت عليه الصروف، ونُقل من مكتبة مسجد رضا باستانبول، وقد قمت بما تحتمه مبجلة التأديب، وحين عزمت على إرسال المخطوط بالبريد إلى واشنطن حيث اعتكف العلامة قرب مكتبة الكونجرس، فجعني البرق بأن العلّامة صلاح الدين قد انتقل إلى جوار ربه، وحيداً غريباً، في غرفة صغيرة كتلك التي قضى فيها ساطع الحصري، وأبو زكريا الأنصاري، والمنفلوطي، والكواكبي.

إلى روح العلّامة، الذي جعل العلم حياة لقلبه، ومصباحاً لبصره، مَنْ عجزَت الوحدة والوحشة أن تقدحا في لسانه وفكره، واختفى أثرهما على صفحات ثباته وعزمه، أهدي هذا الكتاب، وأردد:

هذا زمان ليس يحظى به حدثنا الأعمش عن نافع

د. محمد عيسى صالحية

تقـديم

كان العلامةُ الجليلُ أحمد تيمور باشا أول من تنبه إلى أهمية الشيخ محمد عياد **الطنطاوي في تاريخ علم المشرقيات**، حيث بذل الجهدَ في تسقط أخباره زماناً من مختلف المصادر، وسأل عنها علماء الأزهر الشريف، ووسع دوائر بحثه عند المستشرقين، ومن ثم كتب **مقالته الشهيرة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»**[1]، وقد بادر العـالم اغنـاطيوس كراجكوفسكي في الرد على مقالة العلامة أحمد تيمور، بمقالة عنوانها «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»[2]، ضمنها ذكر أهم المراجع التي حوت ترجمة لسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ومنها المقالة الشهيرة التي كتبها العـلامة J.G.Kosegarten في مجلة Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, VII /850, 43-67, 197-200 ثم استـدرك عليه العـالم يوسف غوتـوالـد في مجلة Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, Iv, 243-248 **هذا إضافة إلى الشذرات والنتف** الواردة في حرودات كتبه المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية، وكذا رسائله المبعثرة من أصـدقـائه، والتي يوجـد قسم منهـا في مكتبـة جامعـة هلسنكي، وقـرن كراجكوفسكي رسالته للعلامة أحمد تيمور بصورة للقبر الذي يرقد فيه الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وبما يفيد بأن كراجكوفسكي بصدد وضع مصنف لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي. لقد كان لرسالة كراجكوفسكي أطيب الأثر في نفس العلامة أحمد تيمور باشا فكتب إليه الرسالة التالية:

---

(١) مجلة المجمع العلمي ـ المجلد ٤، الجزء ٩، أيلول ١٩٣٤ هـ/صفر ١٣٤٢ هـ (٣٨٧ ـ ٣٩١).

(٢) نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد٤، الجزء ١٢ كانون الأول ١٩٢٤م ـ جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ (٥٦٢ ـ ٥٦٤).

سيدي الصديق الأجل؛

تشـرفت اليوم بوصـول كتابكم الكريم مصحوباً بالصور عن قبر الشيخ عياد وتلك مكرمة عظيمة وهمة شماء وعناية ليست بعدها غاية أذكرها لكم فأشكرها ما دمت حياً، وسننشر في الزهراء ملخص كتابكم ولوح القبر المكتوب عليه بالعربية مع التنويه بأنكم وضعتم ترجمة مفيدة عن الشيخ ستنشرونها مستقلة. وكنت أود أن أطيل لكم في كتابي وأذكر لكم بعض فوائد تهمكم عن الكتب التي دخلت خزانتي حديثاً لولا أنني كتبت لكم هذا وأنا طريح الفراش لمرض ثقيل أصابني من نحو شهر، وقد أخذت الحالة تتحسن ولكن ببطء والضعف شديد جداً حتى أني أتعجب من استطاعتي كتابة كتابي هذا إليكم. وأرجو أن تتقبلوا سلامي الخالص وأشواقي الكثيرة وشكري المكرر يا سيدي العزيز.

١٣ المحرم ١٣٤٨هـ   ٢٠ يونيه ١٩٢٩   المخلص: أحمد تيمور[1]

وقد أوفى كل منهما بوعده، فنشرت الزهراء ملخصاً لرسالة كراجكوفسكي[1]، ومن ثم أصدر كراجكوفسكي كتابه عن الشيخ المصري الأستاذ في بطرسبورغ في بداية سنة ١٩٣٠م.

ومن ناحية أخرى، فقد أثير الاهتمام بالشيخ محمد عياد الطنطاوي مرة أخرى في مجلة الرسـالـة، بمقالة استفهامية عن الشيخ عياد الطنطاوي، رجا خلالها الكاتب ممن يعثر على تاريخ هذا الرائد المجهول، أن يدلي على صفحات الرسالة بالمصادر التي يمكن الرجوع إليها عن شخصيته[3]، وقد نبه الأستاذ سعيد الأفغاني

(١) انظر، مع المخطوطات العربية، صورة ص١٠٤.

(٢) مجلة الزهراء (شاهد قبر الشيخ عياد الطنطاوي) ذو القعدة ١٣٤٧ هـ، مجلد ٥، ص٣٦٠.

(٣) انـظر، مقـالة محمد أمين حسونة: الشيخ عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، القاهرة، ٧ محرم سنة ١٣٦٣ هـ، الموافق ٣ يناير ١٩٤٤م، مجلد ١٢، ص٣٩.

إلى جهود أحمد تيمور باشا وكراجكوفسكي[1]، بهذا الصدد، وطلب إلى الكاتب أن يعاود النظر لها. وعاود اهتمام الباحثين بالشيخ عياد على صفحات مجلة الكتاب في عدديها يوليو ١٩٤٦ ويونيه ١٩٤٩، بمقالات اشترك فيها محمد عبد الغني حسن ون.ج بولوتسكي. ولكنها لا تخرج عما نشر عنه قبل ذلك.

لقد كانت بحق كتابات أحمد تيمور وكراجكوفسكي أفضل ما كتب عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي بسبب دقتها وشموليتها واستقصائها لسيرة حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، لا سيما خلال إقامته في روسيا، وأكمل عقد سيرة حياة الشيخ محمد عياد، الأديب حسين علي محفوظ بكتابه الذي عنونه بالشيخ محمد عياد الطنطاوي، معلم اللغة العربية، العربي الأول في أوروبا[2].

وأما ما كتبه محمد عبد الغني حسن، سواء تحت عنوان «عربي في بلاد الصقالبة، الشيخ محمد عياد الطنطاوي ١٨١٠ - ١٨٦١م»، أو نفس المقال الذي نشره بعنوان آخر دون إضافة أو حذف «أعلام النهضة الحديثة»، فلا يعدو التقاطات من مقالات تيمور وكراجكوفسكي، وعلى نفس المنحى يقال عن المقالة التي كتبها محمد عبد القادر بافقيه من اليمن، بعنوان «من قصص الاستشراق والتغريب، الطنطاوي الذي مات في بترسبرج»، فقد اقتبسها بقضها وقضيضها من كتاب كراجكوفسكي الموسوم بـ «مع المخطوطات العربية»[3] بجرأة اقتباسية عجيبة.

ومن جانبنا فمن خلال اطلاعنا على ما ورد في الدوريات العربية والأجنبية عن سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ودراستنا لكتابه تحفة الأذكياء، فإننا نقدم

---

(١) انظر، الرسالة، العدد ٥٥٤، ١٩ صفر ١٣٦٣ هـ/١٤ فبراير ١٩٤٤م، المجلد ٤، ص٥٦٢ - ٥٦٤.

(٢) مستل من مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع ١٩٦٤م، مطبعة الحاني.

(٣) انظر، مجلة المنتدى، السنة السادسة، العدد ٦٧، جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ هـ، فبراير ١٩٨٩م.

ترجمة لحياته نراها قريبة إلى الصواب، وتلقي أضواء على سيرة هذا الرائد. تروي سيرته بأن اسمه:

هو محمد عياد بن سعد بن سليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي، ولد في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا، سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، وينسب إلى قرية مرحوم من أعمال مديرية غربية مصر والتي كان أبوه منها، حيث عمل والده سعد ببيع القماش والصابون والبن. وفي بلدته مرحوم تلقى الطفل محمد عياد علومه الأولية، حيث حفظ القرآن وأعاده، ومن ثم قصد طنطا لاكمال دراسته[1]، وهي المدينة التي كانت حافلة بالعلماء والفقهاء والقراء، فدرس هناك على الشيخ محمد الكومي، شرح ابن قاسم في الفقه سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، وعلى الشيخ محمد أبي النجا، الشرح السالف الذكر، وشرح الخطيب سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م، والشيخ مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي، شيخ الجامع الأحمدي بطنطا سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م فروى عنه حديث الأولية وكتب الستة[2].

(١) الزهراء، م٧/ ٤٢٠.

(٢) أجازه الشيخ مصطفى القناوي بالرواية ونص الإجازة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد؛

فقد أجزت العمدة الفاضل، ولدنا العزيز الشيخ محمد عياد بن المرحوم الحاج سعد عياد المرحومي بحديث الأولية وهو قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَن في السمآء». كما أجازني به شيخي وأستاذي فخر السادة الأشراف، ونخبة آل عبد مناف، الحسيب النسيب السيد محمد مرتضى الزبيدي الحسيني اليمني. كما أجازه بذلك مشايخه.

وأجزته كذلك بما أجازني به شيخي وأستاذي الشيخ محمد عبادة الغنيمي بلدا البيومي طريقة، كما يرويه عن مشايخه: أجلهم سيدي عمر التطاوني المغربي الشاذلي، والمبادرة إلى طاعة الله تعالى فإنها السبب الأقوى، ولا ينسانا من دعواته. =

ويبـدو أن محمد عياد قد ورد القاهرة بعد سنة «١٢٣٨هـ/١٨٢٢م واستمر دارسـاً ومـدرساً حتى سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، درس خلال ذلك على جملة من شيوخ الأزهر المتنورين أمثال الشيخ حسن العطار، ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م، شيخ الجـامـع الأزهـر، منـذ سنـة ١٢٤٦هـ/١٨٣٦م، صاحب التصانيف في العلوم العقلية، ورائد منهج التدريس بالنزعة الأدبية[١]، حيث قرأ عليه تفسير البيضاوي، والشيخ إبـراهيم بن محمـد بن أحمـد البيجـوري، شيخ الجـامـع الأزهـر، ت ١٢٧٧هـ/١٨٦٩م، الـذي غشي مجلسـة ولازمه سنين قرأ عليه خلالها أصول الكتب ونظر في علوم النحو والفقه والبلاغة والأصول والمنطق والكلام، وقد كان تأثير البيجوري على تلميذه محمد عياد كبيراً، فسار يختار لحلقته موضوعاً أدبياً مثل مقامات الحريري والمعلقات[٢]، وكذا الشيخ برهان الدين، أبو المعالي، إبراهيم السقا، ت ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، خطيب الأزهر المفوه وشيخه، وصاحب التصانيف العديدة[٣].

لقـد كان تأثير هؤلاء الشيوخ بالغـاً في محمـد عياد الطنطاوي، فاتجه نحو

= وأجزته أيضاً بما رويته عن الأستاذ الأعظم سيدي محمد الحفني الخلوتي الشاذلي بقراءة الكتب الستة المشهورة في علم الحديث: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجـه والموطأ للإمام مالك بن أنس، رضوان الله عليهم أجمعين، ونفعنا بهم وحشرنا في زمرتهم آمين، وأوصيته أن لا ينسانا من صالح دعواته، في خلواته وجلواته.

حصل ذلك عشرين المحرم الحرام سنة ١٢٤٤

الفقير مصطفى القناوي الشافعي الأحمدي

خادم أهل العلم بالمقام الأحمدي

انظر، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، ص٤٢٠.

(١) انظر، تاريخ الأزهر، ١٣٨، الخفاجي: الأزهر في ألف عام، ١/٢٤٧ـ٢٤٨.

(٢) محمد عبد الغني حسن: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٣٢.

(٣) خليل مردم: أعيان القرن الثالث عشر، ١٦٠، خطط مبارك ٩/٢، الأعلام، ١/٧٠.

الدراسات الأدبية، يشرح المقامات ويفسر غريبها، فاتهم بترويج البدع إذا انصرف إلى الشعر والأدب بدلاً من الانصراف إلى مباحث الفقه والحديث[1]، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بطاعون سنة ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م، الذي عاناه مدة عشرة أيام بلا نوم، وغاب عنه الأحساس والادراك حتى سلمه الله وانفتحت البثور، ثم تعافى بعد اسبوعين، وفي ذلك يقول حين اشيع خبر موته شعراً:

تمنى أناس أن أموت وإن مت ... فتلك طريق لست فيها بأوحد
وإن أظهروا موتي فليس بمنكر ... إذا أظهر الشيطان موت محمد[2]

ويفهم من خلال مراسلات محمد عياد الطنطاوي أنه حظي بمجموعة طيبة من الصداقة والصلة، ربطت بينه وبين الشيخ محمد الأشموني الذي تتلمذ وإياه في الأزهر، وصداقة جمعته ومحمد قطة العدوي، المصحح الأول بمطبعة بولاق الأميرية[3] وإبراهيم الدسوقي وعبد السلام الحلبي الترمانيني وعبد الرحمن الصفتي، وعبد الهادي نجا الأبياري وسرور الدمنهوري، ورفاعة بك الطهطاوي ويوسف الصيداوي المتولي على بيته أثناء غيبته وغيرهم، كانت رسائله تحمل أخبار رحلته العلمية واتصاله بدوائر الاستشراق الروسية.

ظلت قصة اتصال محمد عياد الطنطاوي بدوائر الاستشراق الروسية، موضع بحث خلال ثلاثة عقود من الزمن، إذ اعتقد البعض بأن طنطاوي قد اشتغل مدرساً للعربية بمدرسة الارسالية البروتستانتية في القاهرة، سنة ١٨٣٥م، وانه من خلال عمله هذا تعرف على برون الفرنسي Perron، استاذ الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية، ومن ثم عرف فراهن الألماني R.Fraehn، والذي كان والده مدرساً للشرقيات في كلية قازان الروسية وكذا جستاف فيل G. Weil، مدرس الشرقيات في

(١) الزركلي: الأعلام، ١/٥٤.
(٢) انظر، تحفة الأذكياء، ١٦.
(٣) الزهراء، ٧/٤٢٠.

كلية هيدلبرج، وإنه من خلال اشتهار الطنطاوي في دوائر الاستشراق، بسبب علاقاته مع الوافدين على مصر من المستشرقين، وقع عليه الاختيار للتدريس في بتر بورغ، حيث كلف بكتي «المندوب القنصلي Agent Consul الشيخ الطنطاوي للسفر إلى بتر بورغ للتدريس هناك[٣].

ومع تقديرنا لجهود هؤلاء البحاثة الأوائل، فإن كتاب «تحفة الأذكياء» يوضح حقيقة اتصاله بالدوائر الاستشراقية الروسية إذ تعود البدايات الأولى إلى دراسة المسيوفرنيل كتباً عربية وأدبية وتاريخية على الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وكذا الروسي موخين والذي كان يعمل مترجماً للقنصلية الروسية في استانبول سنة ١٨٤٠م، والذي كان قد قرأ على الشيخ طنطاوي شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها[٢]، ومن خلال ذلك نُسجت وشائج العلاقة مع فرنيل، حيث قام الأخير بتقديم محمد عياد طنطاوي إلى القنصل الجنرال الكونت ميدن، أحد أعيان دولة روسيا وكبرائها، والذي عمل فيما بعد سفيراً لروسيا في بلاد فارس، وبلاد أمريكا[٣]، ويبدو أن مدرسة الألسن الشرقية في بتر بورغ كانت بحاجة لمعلم للغة العربية، فكلف وزير الغرباء نسل روض الكونت ميدن بالتفتيش على معلم للسان العربي، فوقع الاختيار على الشيخ محمد عياد الطنطاوي حيث طلب الكونت ميدن من والي مصر، محمد علي باشا، إعارة كلية الألسن الشرقية، الشيخ محمد عياد الطنطاوي لتدريس العربية، ولاقى هذا الطلب القبول من محمد علي باشا، فاستدعي إلى ديوانه الطنطاوي ورخص له بالسفر، وطلب إليه الجد بتعلم اللسان الروسي، لأنه ـ أي محمد علي ـ مشغول بجلب الألسن الغربية إلى مصر، ليعرف مدى التقدم العلمي والاجتماعي الذي وصلت إليه بلاد الروس، بل وكتب له مرسوماً، مهره بخاتمه، ووعده بالاكرام والحظوة إن فعل[٤].

---

(١) أعلام النهضة، ٢٧٦ ـ ٢٧٧، شيخو: الآداب العربية في القرن ١٩، ١/٨٥.

(٢) تحفة الأذكياء، ٩، ٢٣.

(٣) تحفة الأذكياء، ٨.

(٤) تحفة الأذكياء، ٨.

فكانت وفادة الشيخ الطنطاوي في أهدافها في الصف الثاني بعد بعثة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا ولندن، والتي ضمنها كتابه «تخليص الابريز إلى تلخيص باريز». فإذا كان رفاعه الطهطاوي رائد عصر التنوير من خلال بعثته في أوروبا الغربية، فإن محمد عياد الطنطاوي هو رائد عصر التنوير من خلال وفادته في أوروبا الشرقية.

وصل محمد عياد الطنطاوي إلى مركز الروسيا في ٢٦ أيار ١٨٤٠م[١]، وانضم إلى المدرسة الشرقية، حيث ألقى أول محاضرة بعد سبعة وثلاثين يوماً من حضوره، وفي صيف عام ١٨٤٤ سافر بإجازة إلى مصر، ومن ثم عاد خريف ذلك العام إلى بتربورغ، ويبدو أنه في رحلته هذه حمل معه زوجته «علوية»، وابنه أحمد، ثم التمسته الجامعة أن يدرس فيها، فعمل مدرساً فيها من بداية ١٨٤٧م حتى ٨ تشرين الأول اكتوبر ١٨٤٧م. وانتقل للتدريس في الكلية الشرقية خلال السنوات ١٨٥٠ـ١٨٥٤م حيث درس القواعد والأدب والخط والتاريخ والعروض ووضع العديد من المؤلفات التعليمية لتلاميذه.

كان الشيخ محمد عياد الطنطاوي يقضي إجازته متنقلاً بين البلدان الروسية، يطوف المتنزهات والغابات ويحضر الاحتفالات الرسمية والشعبية، وقد حظي بعناية متميزة في الدولة الروسية، حيث عين مستشاراً في الدولة الروسية، وقلده القيصر نشان (وسام) ستانيسلان ووسام حنه، بسبب امتياز التلاميذ في البحث، وفي ذلك يقول طنطاوي:

إنـي رأيت عجـيبـاً
في بتـربـورغ وإنـه

---

(١) التواريخ هنا تحسب على أساس التاريخ المعمول به في روسيا وينقص ١٢ يوماً عن الميلادي، وفق ما ذكره محمد عياد في مقدمة كتاب تحفة الأذكياء.

شيخ من الــمــسـلـمـين
يضم في الصــدور حنـه

كما قلده القيصر خاتماً مرصعاً بالألماس الغالي، في البحث الثالث. وفي روسيا تتلمـذ عليه عـدد من المستشـرقين منهم، G.A. Wallin الفنلنـدي الـذي ساح في الجـزيرة العـربية ومصر وسوريا لسنين تحت اسم عبد الولي، وله مع الطنطاوي مراسـلات، جمعهـا وطبعهـا متـرجمة إلى الآسوجية، وهي محفوظة في جامعة هلسنكي Helsinki والتي أصبحت فيمـا بعـد تعـرف بـ Helsingfors عاصمة فنلندا، والمستشـرق انـطوني موخلينسكي. الـذي قرأ على طنطاوي العديد من الكتب العـربية واللطائف الأدبية، ومنهـا ديوان عبد الرحمن الصفتي، وكذا المستشرق نافروتسكي وكروكاس.

ويتضح من الوثائق الرسمية التي اطلع عليها كراجكوفسكي، أنه في سبتمبر من سنة ١٨٥٥م، عانى الشيخ الطنطاوي من شلل أصاب أطرافه السفلية، ولما كان كراجكوفسكي بصدد انجاز كتابه عن الشيخ طنطاوي، حمل إليه أحد العاملين في مكتبة الكلية الشرقية كومة من الأوراق، اتضح بعد فحصها أنها تخص الشيخ الـطنـطاوي، كانت كلها مملوءة بخطوط كتلك التي يحب أن يرسمها الأطفال، بمساحات بيضاء خالية وبخطوط مكسرة غير واضحة، وحين أعاد كراجكوفسكي ترتيبهـا بدت أمـامه الحقيقة المرعبة، إنها تتضمن مجموعة من الأمثال باللهجة العـامية المصـرية ونماذج من التحايا والأغاني العامية ومواد مختلفة من البلاغة والنحـو والألفـاظ العربية مما يتصل بالشيخ الطنطاوي، وبدأ واضحاً أنها كتبت بعد أن أخذ الشلل يسري إلى يديه، وبدا صراع الشيخ مع المرض يتمثل في عدم قدرته على السيطرة على القلم، فلم تطاوعـه لا الـريشة ولا القلم، فبدت الثقوب في الأوراق، وكـأنمـا الشيخ يجـاهد ليكتب حتى إذا ما هاجمته الرعشة اللاإرادية، انقبضت اليد فيجري القلم دون سيطرة، ومع اشتداد المرض زادت معاناة الشيخ في الكتابة فالحروف تلتحم، وتتمدد وتتطاول حتى قربت من كتابة أعمى غمس

عصاه بدهان ليكتب به، كانت يده هامدة ولكنه كان يحاول وبإصرار أن ينهض بعلمه ويدون فكره، بعزيمة لا تعرف التقهقر أو الاستسلام[1]، حتى إذا كان يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني ١٢٧٨هـ، انتقل الطنطاوي إلى رحمة ربه/ ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١م، ودفن في مقبرة فولكوفو[2] الإسلامية، وكتب على شاهد القبر. «هذا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي كان مدرس العربية في المدرسة الكبيرة الامبراطورية ببطرسبورغ المحروسة وتوفي في شهر جمادي الثاني سنة ١٢٧٨[3] من الهجرة عن خمسين سنة».

مؤلفاتـــه:

لا يزال العـديد من مؤلفـات الشيخ الـطنـطاوي محفـوظـاً، تحتفظ مكتبـة الدراسات الشرقية بجامعة لينغراد بالعديد منها، وفي خزانة معهد الأمم الأسيوية، ومعظمها يتصل بالدراسات اللغوية والدينية التي كان يستعين بها على تدريس مادة اللغة العربية وآدابها في كلية الألسن ببتربورغ، ومنها.

ـ أحس النخب في معرفة لسان العرب[4].

وهـو ألفـاظ وجمـل وأمثـال وحكايات وملحقات ورقاع وصكوك ومواويل وشعر ورسائل تُبودلت بينه وبين أصدقائه في مصر، والرسائل موجهة إلى:

ـ محمد خليل صاحب زاده الفاروقي، نقيب الأشراف بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٢١٢هـ.

---

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٤١-٢٤٢.

(٢) محفوظ: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ٨٣.

(٣) حسب الوثـائق الرسمية المحفوظة في خزانة الكلية الشرقية كانت الوفاة في ٢٩ أكتوبر ١٨٦١م، ويوافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٨ هـ.

(٤) اعتمدنا فيها على ما ورد في كتاب، محفوظ: سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٠-٢٤).

- محمد قطة العدوي تاريخ ٤ محرم ١٢٥٩هـ.
- إبراهيم الدسوقي، غرة شهر رمضان ١٢٥٧هـ.
- يوسف الصيداوي، المشرف على بيته أثناء غيابه ١٢ جمادى الأولى ١٢٣٧هـ.
- عبد السلام الحلبي الترمانيني ذي القعدة سنة ١٢٥٧هـ. والكتاب طبع في ١٨٤٧، /١٢٦٤.

- اصلاح تحريف كتاب الإيضاح في شرح سقط الزند، لابن الخطيب التبريزي، كتبه إبان احتجازه في كرنتينة استانبول، يوم السبت ٢٢ صفر سنة ١٢٥٦هـ. منه نسخة في خزانة الكلية الشرقية، بجامعة لينغراد، رقم ٨٣٧.

- الأمثال، مخطوط.

- الانتخابات.

وهو كتاب انتخبه من مجموعة كتب أدبية تراثية، مثل العقد الفريد والأغاني والخطط للمقريزي، وتعليق من شرح لامية العجم للصفدي، وتكملات في الأعياد والمواسم والموالد، ونقول من جريدة الوقائع المصرية، وعبارات مستعملة في الحياة وجواباتها.

- بغية المريد على رسالة التوحيد (حاشية على رسالة الباجوري).

- مسودات لتاريخ العرب، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

- ترتيب تلاقي الأرب في مراقي الأدب على حروف المعجم، وهو ديوان صديقه عبد الرحمن الصفتي، خزانة الكلية الشرقية، رقم ٨٩٢.

- ترجمة الباب الأول من كلستان لسعدى الشيرازي، بخطه في جامعة بتروغراد رقم ٨٣٨.

- ترجمة الطنطاوي بخطه.

وهي ورقة أودعها كتاب «التعليق على الكافي في العروض» بين ورقة ٦٦ب - ٦٧أ.

- ترجمة مختصر تاريخ روسيا، تأليف استريالوف، ورد ذكره في تحفة الأذكياء، ص ٥٩.

- تصحيح أغلاط نسخة يتيمة الدهر للثعالبي، نسخة خزائنية برسم المولى محمد خليل بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالمرادي، المفتي بدمشق، سنة ١١٩٥هـ، بخط ياسين بن أحمد بن الشمعة، خزانة معهد الأمم الأسيوية، لينغراد، رقم D 162 [1]

- تعاليق حاشية المقولات للشيخ حسن العطار.
- تعاليق على حاشية الأمير على شرح الملوى على السمرقندية في البيان.
- تعاليق على حاشية البيجوري على السمرقندية.
- تعاليق على الكافي في علمي العروض والقوافي.
- تقييدات على (شرح الأزهرية في النحو للشيخ خالد الأزهري)، مع التعرض لحاشية الشيخ حسن العطار. (نسخة خزانة الكلية الشرقية ٨٢٧).

- تواريخ الخلفاء والسلاطين والملوك وسلاطين الديار المصرية من زمان النبي، ﷺ، إلى عصر عبد المجيد خان، سنة ١٢٥٠، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٣٣.

- حاشية أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري[2]
- حاشية التحفة السنية والعقائد السنية (شرح منظومة السيد محمد بليمة لبرهان الدين، أبي المعالي، إبراهيم السقا.

---

(١) كان الفراغ منه في ١٩ رمضان ١٢٦٢ هـ. انظر، محفوظ: سيرة الشيخ محمد الطنطاوي، ١٧.

(٢) قابله وحشاه في ضحوة الأربعاء، ٢٥ ربيبع ١٢٥١ هـ، انظر، محفوظ: سيرة الشيخ ١٧.

- حاشية الزنجاني في الصرف.
- حاشية شرح الأزهرية في النحو.
- حاشية الكافي في علمي العروض والقوافي.
- حال الأعياد والمواسم في مصر.
- الحكايات العامية المصرية، وتضم ٣١ حكاية، بخطه في خزانة الكلية الشرقية، رقم ٧٤٥.
- ختم على شرح القطر لابن هشام.
- ختم على متن الجوهرة في العقائد للقآني.
- رسائل ومنها رسائل الطنطاوي إلى تلميذه المستشرق الفنلدني G.A. Wallin .
- شرح منظومة الشيخ السلموني في العقائد.
- شرح نظم السمرقندية.
- غنية المريد في علم التوحيد.
- قاموس عربي فرنسي، طبع في قازان سنة ١٨٤٩.
- قواعد اللغة العربية باللغة الروسية.
- لذيذ الطرب في نظم بحور العرب. جعل آخر نظمه لكل بحر من بحور العروض آية من القرآن.
- ما يقال في الحياة اليومية من التعابير وأجوبتها.
- مجموعة شعره، في خزانة الكلية الشرقية رقم ١٢٣٥.
- مشتهى الألباب على منتهى الآراب، يقع في ٨٦ ورقة، خزانة الكلية الشرقية رقم ٨٢٠[١].
- معجم تترى عربي.
- منتهى الآراب في الجبر والميراث والحساب، منظومة في بحر الرجز، منه نسخة

(١) أكمل تسويده يوم عاشوراء سنة ١٢٤٥ هـ، وفرغ من تبييضه ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ.

في جامعة بتروغراد، رقم ٨٢٠، كتبت سنة ١٢٤٥هـ.
- الموالات.
- نظم تصريف الزنجاني.
- نظم السمرقندية في البيان.
- نقد ترجمة بعض التعابير العربية في كتاب المستشرق سلفتر دي ساسي.
- نقد طبعة رحلة ابن جبير.
- نقد كتاب «الأمم الإسلامية» تأليف كارسين دي ساسي.
- هامش كتاب «الحجة في سرقات ابن حجة لشمس الدين، محمد بن حسن النواجي».

ويلاحظ بأن معظم مؤلفاته كانت كتباً تعليمية قد وضعت للطلبة لدراستها أو الاستفادة منها.

أما أهم كتبه، فكان الكتاب الذي ننشره، وقد جاء على صفحة عنوانه:

«هذا كتاب
تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي
غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه

والمخطوط محفوظ في مكتبة جامعة استانبول تحت ٧٦٦ عربجة (عربي).
وكتب المخطوط بخط نسخ عادي وبالمداد الأسود

أوله: حمداً لمن سير سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيّض، له أعواناً يعضدونه، وأنصاراً يحمونه وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل

بلدهووده الغرباء . . . الخ .

آخـره: والله أسأل وبنبيه أتوسل، أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلا التبصير وما مرامي إلا التذكير، إن أُرد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

اسم الناسخ: مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري .

عدد الأوراق: ١٩٤ ق .

عدد الأسطر: ٢٣ س .

تاريخ النسخ: أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٦هـ/ أوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠م .

مكان التصنيف: بتربورغ .

روى كراجكوفسكي في كتابه مع المخطوطات العربية خبر عثوره سنة ١٩٢٤م على نسخة من مخطوط «تحفة الأذكياء» ذلك أن أحد مستشرقي الألمان أشار في فهارسه التي صنعها لمكتبات استانبول «وجود نسخة من تحفة الأذكياء في خزانة مسجد رضا باشا والعنوان يقول «تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوي» كتبه بخطه سنة ١٨٥٠م/١٢٦٦هـ وأهداه إلى السلطان عبد المجيد»، وقد تسلم كراجكوفسكي نسخة منه سنة ١٩٢٧م، ذهب بعد فحصها إلى أن المخطوط ليس بخط الشيخ الطنطاوي وإنما بخط أحدهم، ولما كنا نميل إلى هذا الرأي، فإن الإجازة رقم ٣١٧ مصطلح الحديث المحفوظة في دار الكتب المصرية تدعمنا فيما ذهبنا إليه، فالإجازة بخط الشيخ الطنطاوي».

ثم حمل إليه أحد تلاميذه كومة أوراق اشتراها من بائع كتب قديمة، عليها عبارة «أ. ن»، عرف كراجكوفسكي لدى تصفحها بأنها مسودة كتاب تحفة الأذكياء كتبها طنطاوي بخطه وعليها تصحيحات وتعديلات، وأما الأحرف أ. ن، فترمز «لا يريني نوفل الطرابلسي» الذي خلف طنطاوي في التدريس بالقسم التعليمي للغات

الشرقية التابع لوزارة الخارجية، أما كيف وصل الكتاب إلى بائع الكتب القديمة؟ فتلك مسألة معروفة فإن ورثة إيريني نوفل بعثروا مكتبته بين أيدي البائعين حتى وصلت المسودة إلى المشتري الذي التقطها وهو تلميذ كراجكوفسكي النبيه[١]..

ويبدو أن أخبار اكتشافات كراجكوفسكي لم تنتشر في الوطن العربي أو كانت محدودة الانتشار، مما حدا بالاستاذ محمد عبد الغني حسن أن يتساءل في إعلام النهضة الحديثة[٢] إن كان الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا كتاباً في بترسبورغ وآثارها، وانتهى محمد عبد الغني حسن إلى أن ما هو معروف أن الشيخ الطنطاوي قد ترك لنا رسالة إلى زميله وصديقه رفاعة الطهطاوي.

وفي تلك الرسالة يكتب طنطاوي إلى زميلة الطهطاوي فيقول:

«أنـا مشغـوف بكيفية معيشة الأوّروبيين وانبساطهم وحسن ادارتهم وترتيبهم خصوصاً ريفهم، وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار إلى ذلك مما شاهدتهم قبلي بمـدة في باريز إذ بتر بورغ لا تنقص عن باريز في ذلك، بل تفضلها في أشياء كاتساع الطرق، وأما من قبل البرد فلم يضرني جداً، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ولبس فروة إذا خرجت وأما في البيت المدافىء المتينة معده لإدفاء الأوض، وطالما أنشدت عند جلوسي قرب النار؛

النار فاكهة الشتاء فمن يرد   أكل الفواكه في الشتاء فليصطل[٣]

وفي رسالة بعثها، ن.ح. بولوتسكي، مدرس اللغة القبطية في معهد العلوم الشرقية بالجامعة العبرية بالقدس، ونشرت في مجلة الكتاب، عدد يوليو ١٩٤٦، ص، ٥١٠، لفت نظر محمد عبد الغني حسن إلى أن الشيخ الطنطاوي قد ترك

(١) كراجكوفسكي: مع المخطوطات العربية، ٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(٢) محمد عبد الغني حسن: أعلام النهضة الحديثة، ص٢٨٠.
(٣) أحمد تيمور: محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، ٤/٣٩٠.

أثراً هو «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا» تحفظ نسخة منه في دار الكتب لجامعة استانبول، ونسخة أخرى منه تصان في مكتبة الخزانة الشرقية في لينغراد، ونوه بجهود كراجكوفسكي بهذا الصدد، والذي تحدث عن اكتشافه لهذا الأثر.

ويخيل إلينا أن النسخة كانت محفوظة فعلاً في خزانة جامع مسجد رضا باستانبول، وبعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك، نقلت محفوظات المساجد، ومنها محفوظات خزانة مسجد رضا، ووزع ما سلم منها على المكتبات العامة في جميع أنحاء الجمهورية التركية، ويبدو أنه من حسن الطالع استقرار النسخة أخيراً في مكتبة جامعة استانبول تحت الرقم الذي أشرت إليه سابقاً.

ولما كان لا علم للباحث بأن رحلة «تحفة الأذكياء» قد نشرت بالعربية أو أن أحداً قد اطلع عليها خلا كراجكوفسكي الذي استعان بها لوضع كتاب في سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ثم إن الكتب الروسية الأربعة التي اتصلت بالمخطوطات العربية المحفوظة في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي قد خلت من ذكر كتاب «تحفة الأذكياء».

فإن الباحث يميل إلى أن النسخة الروسية إما لا تزال محفوظة في خزانة الشيخ محمد عياد الطنطاوي الكائنة في مكتبة معهد الشعوب الآسيوية ـ الافريقية بلينغراد والتي تلفت بعض محتوياتها في حادث وقع سنة ١٩٨٩م، أو أنها اختفت أصلاً بعد وفاة مالكها العلامة كراجكوفسكي، ولعل الأيام تتيح للباحث فرصة النظر في خزانة كتب الشيخ الطنطاوي، وقد حاول الباحث وما زال من أجل الحصول عليها، كما فعل الاستاذ حسين على محفوظ، والذي عمل مدرساً للعربية في نفس المعهد الذي درس فيه الشيخ الطنطاوي من سنة ربيع ١٩٦١ حتى أوائل صيف ١٩٦٣م، والذي حين أشار إلى تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا، أحال القارىء إلى مجموعة كراجكوفسكي المجلد ٥ص ٢٨٩ـ٢٩٠، وأضاف، تراجع تعريف كراجكوفسكي بالكتاب وصفته في مجموعته «المجلد ١ ص ١٦٦-١٧٤، بل إن

حسين محفوظ حين جمع بعضاً من قصائد الطنطاوي والتي وردت أصلاً في كتاب تحفة الأذكياء، التقطها من أوراق أخرى غير التحفة، مثل: تتبعات في التاريخ والجغرافيا واللغة والأدب، أو الإيضاح، أو الانتخابات، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن الاستاذ حسين علي محفوظ لم يطلع على كتاب تحفة الأذكياء. ومن هنا تأتي أهمية كتاب تحفة الأذكياء، والذي ينشر لأول مرة بنصه العربي.

ملاحظات على كتاب تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا:

تحتفظ مكتبة جامعة استانبول بنسخة وحيدة من كتاب «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا «مسجلة تحت رقم ٧٦٦ عربجة، نقلت إليها من مكتبة مسجد رضا وجاءت النسخة في ١٩٤ صفحة، مسطرتها ٢٣ سطراً، وعلى صفحة العنوان سجل:

هذا كتاب
تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي
غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه

وجاء بآخره دعوة أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء بعين الانصاف وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، ثم إثبات تاريخ الإنتهاء منه، حيث ذكر:

«وقد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني سنة ١٨٥٠، من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير محمد عياد الطنطاوي المصري ببتربورغ».

وقع كتاب تحفة الأذكياء في رواية لرحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوي التي بدأت في ٢٤ محـرم ١٢٥٦هـ/٢٦ مارس ١٨٤٠م من القاهرة حتى وصوله إلى بتـربـورغ في ٣٠ حزيران ١٨٤٠م، ١١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ، وغطت ٥٢ صفحة من الكتاب، ثم عقد ثلاثة أبواب اتصل الأولى منها، بمنشأ الروس وولاية نوفغـورد Novgord ، والباب الثاني تعلق بتاريخ بتربورغ الطبوغرافي والاثنوغرافي والطبيعي والبشري، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل في الباب الثـاني ثلاثـة فصـول ركـزت في معظم مادتها على حياة بطرس الأكبر وانجازاته وإصلاحاته، ودوره في نهوض روسيا وتقدمها في المجالات العسكرية والسياسية والاجتمـاعية والثقـافية، ثم عرضاً للأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية في بتربورغ خاصة وروسيا عامة في عهد خلفاء بطرس الأكبر.

وأما الباب الثالث فقد أرخ فيه لعادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعـادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة والأعياد والتنظيمات الاجتماعية ودور المرأة في ذلك المجتمع وتقدم الروس في العلوم والفنون والسكن وأنماط المعيشـة ثم ختم البـاب بفصـل عاشر تناول فيه اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها.

وقد حرص الشيخ محمد عياد الطنطاوي في بداية كتابه على توضيح البواعث التي دعته لتصنيف كتابه، فقد سأله جماعة من الأصدقاء والمعارف أن يسطر في سفره هذا كتاباً، يودع فيه ما يقف عليه من حال البلاد التي يزورها من عجائب وغرائب، مع ما صادف ذلك عنده من ميل أدبي، فسجل في كتابه، بدائع البلاد التي رحـل إليهـا وغرائب عادات أهلها، مع شذرات علمية ونكات أدبية وطرف استحسانية اختراعية ليضفي على الكتاب لمسة ظرف طرداً للملل وجذباً للقارىء فقد أورد العديد من النكات اللغوية واللطائف والمواقف الغرامية.

وكـان خط سير الـرحلة من القـاهـرة إلى جنينـة شبرى ومروراً بزاوية رزين

فالاسكندرية حيث انتقل إلى باخرة نمساوية وصف درجاتها ونظام الإقامة فيها والخدمات التي يقدمها العاملون فيها ثم إلى جزيرة جريد (كريت) العثمانية حيث تحدث عن مبانيها ووصف بناياتها وعدد سكانها ومنها إلى مرسي كنى، وجزيرة سير ثم إلى أزمير وقد اطنب في الحديث عنها، فبحر مرمرة حتى استانبول التي أقام بها أياماً، ووصف ما شاهده فيها بعين فاحصة ناقدة، من قباب ومؤسسات ومساجد وخاصة أيا صوفياً وغلطة ومصانع الورق والمتنزهات فيها ثم إقامته قبل ذلك في الاسكدار ورحيله إلى أوديسا والإجراءات الصحية بسبب الطواعين التي كانت متفشية في بلدان العرب وخاصة مصر، ومن ثم ركب عربة تجرها الخيول بعد تزويده بتذكرة مرور ومرافقه مترجم روسي خاص، وقد وصف الطريق إلى بتربورغ فمر بنهر بوخ وكييف والغربول وموهلوف وبودن وسكندرية الأخرى وفينيسك وتسارسكيا سلو حتى وصل إلى بتربورغ، وخلال عرضه لما شاهده كان يحرص على وصف أدق الأشياء ويقارنها بحال مصر، فالخبز نظيف والماء عذب والمتنزهات تغطيها الأشجار والورود والرياحين تشرح الصدور وتنسي الهموم، الناس فرحون، نوبات الموسيقى تعزف والراقصون يبهرون الأنظار والأطفال يمرحون ويلعبون في الحدائق وقد اعدت لهم وسائل الكتب والتسلية والمدارس كثيرة ومنتشرة في البلاد الروسية وخاصة مدارس البنات، والمعامل كثيرة لصناعة الطوب والقطران، والمرستانات والتياترات، حتى إذا ما استقر به الحال في البلاد الروسية لمدة عشر سنوات، وباشر عمله في التدريس، ومن خلال دراساته لتاريخ تلك البلاد وما شاهده عياناً وما خبره تجربة سجل من خلاله أحوال البلاد الروسية.
وجاءت في ثلاثة أبواب، احتوى الباب الأول على تاريخ روسيا القديم، وتاريخ الصقالبة السكان الأول لتلك البلاد، حيث وصف معتقداتهم الوثنية وطرائق عيشهم وانتجاعهم من مكان إلى آخر وعشقهم للحروب وبراعتهم في صنع السلاح، القسي والحراب والسهام والسيوف، وأورد الرواية الرومانية التي تفيد بأن أصل السكان سكيفي وصرماطي ومن ثم قام على بقاياهم الصقلب، ومن ثم اتصلت

تلك الشعوب باليونان عن طريق التجارة، كما أرخ لأصل ولاية نوفغورد Novgorod وظـروف بنـاء المـدينـة وعـادات وتقاليد أهلها في السياسة والاجتماع، ومن ثم انضوائها ضمن الروسيا وسجل أصل ولاية كييف Kiev ، ورواية بنائها من قبل أخوة ثلاثة، أطلق إسم الأكبر منهم على المدينة ثم انتقالها من الخضوع للخزر إلى الروسيا[١]، ومن ثم كيفية اختيار فلاديمير سنة ٩٨٨م أحد ملوك الروسيا للنصرانية وإعراضه عن الإسلام الذي سبق وأن عرض عليه، وذلك بسبب تحريم الإسلام للخمر، والروسي حسب رأي فلاديمير لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصر، ولكن الشيخ محمد عياد يورد رأياً آخر يتصل بقرب بلاد الروس من بلاد الروم، وفي ذلك تقوية للروس إذا ما اتخذوا ديانة النصرانية، وسهولة وتمتيناً للروابط التجارية والعلمية[٢].

أمـا البـاب الثـاني، فقد خصصه لدراسة أوضاع مدينة بتربورغ من الناحية الجغـرافية والطبوغرافية والسكانية، ووصف طبيعة مناخها وتجلد مياهها حتى أن العربات تسير على أنهار متجلدة، وينحت فيها بيوت من الجليد، ومن ثم تقدمها في العلوم والفنون وطرز البناء واتخاذها عاصمة لبلاد الروسيا[٣]، وقد قسم الباب إلى ثلاثة فصول، كان الفصل الأول منها لأصل الكلمة المكونة من مقطعين، بتر يعني بطرس بانيهـا وبـورغ يعني بلد أو محل، فهي مدينة بطرس بانيها ومتخذها عاصمة بلاده، وقد فصل في موقعها وخطوط طولها وعرضها وارتفاعها، واتصالها بالأنهار، ووصف بناياتها وأشجارها ومياهها وحدائقها وبساتينها وقصورها ورياحها وتجلد نهر النيفا والفيضانات التي وقعت في المدينة وما سببته من كوارث وأضرار،

---

(١) Levitsky, Hi Kiev, a short guide, Mistetstvo Publishers,
Kiev Progress Publishers, Moscow, 1980. PP. 25-34.

(٢) تحفة الأذكياء.

(٣) تحفة الأذكياء، ٥٩.

وتحدث بإفاضة عن طول الليل والنهار فيها ودوام هطول الأمطار، ولكن كل ذلك لم يحل دون مداومة الناس على اشغالهم واجتهادهم في إنجاز أعمالهم[١].

وقد تحدث بإفاضة عن بيت الجليد الذي بني على نهر النيفا أمام القصر في كانون الثاني ١٧٤٠م حيث استخدمت صخور مكعبة من الجليد، وعلى السقف بني ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، وأمامه أعمدة عليها تماثيل وأبوابه وشبابيكه مرخمة وملحق به حديقة أشجار عليها طيور وثمار وغيرها كثير، كل هذه من الجليد المنشور المنحوت المصقول[٢]، أما الفصل الثاني فكان في أسباب اتخاذ بتر بورغ عاصمة روسيا بل وقاعدة أوروبا، وحروبها مع السويد ومجريات ووقائع تلك الحروب والخطط الروسية والتي أدت إلى النصر بفضل فطنة وكياسة وقيادة القيصر[٣]، وبعد استقرار الأحوال أعمل القيصر جهده في تحسين وتوسيع وتنظيم المدينة وتنمية العلاقات التجارية الخارجية، ثم التفات بطرس لتمدين الروس بتقدمهم في العلوم، وأصدر عدة فرمانات اتصلت بالعمارة في بتربورغ والإقامة فيها وتنظيم الجمارك ورعاية بعثات التعليم إلى أوروبا للاطلاع على تمدنها وتقدمها، وتأسيسه معاهد التعليم العليا وأكديميا الملاحة، وأكديميا العلوم ومدارس التجارة والحرب وأكديميا التصوير والمكتبات وإقامة المسارح، والتياتر، والمتاحف، وخاصة للتاريخ الطبيعي، وأقام المكتبات لمطالعة الجمهور، كما اهتم القيصر بطرس باحداث ضابطه سياسية للمدينة، مثل اللوائح التنظيمية، للأبنية والشواطىء والخلجان والسرقة والنظافة والأسواق ومراقبة البيوت المتهمة والألعاب المحرمة وإلقاء القبض على المشاغبين والبطالين، ووضع لوائح تنظيمية للجمعيات وخاصة المختلطة، حيث تراعى قوانين لاجتماع الرجال والنساء، وحدد شروط وواجبات

---

(١) المصدر السابق، ٦٩.

(٢) انظر، وصف البيت في ص٧١ - ٧٣ من التحفة.

(٣) حول الحروب، انظر:

Marquis de Custine, Empire of the CZar cajourney through eternal Russia (1839). U.S.A. 1989. PP. 115-135.

صاحب الدعوة والأصول التي يجب أن يراعيها عند التئام الجمعية (الاجتماع) في بيتـه ووقتـه والآداب التي يجب أن تراعى[1]، ومجمله أن الفصـل تناول أعمال ومنجزات وتنظيمات بطرس الأكبر ممدن روسيا، ورائد نهضتها.

أمـا الفصـل الثـالث، فقد جعله لخلفاء بطرس، فترة حكم كترينا وبطرس الثاني، والقيصرة حنا يوحا نوفنه، ثم القيصر نقولا الأول، وقد تناول ما أنجزه كل واحد منهم من عمارة ومنشآت ومباني وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وثقافية وجهود علمية والآثار التي خلفوها وتحكي جهودهم في تقدم الدولة.

وكـان الباب الثالث هو أمتع ما في كتاب تحفة الأذكياء، لأنه يزود القارىء والبـاحث بمعلومـات اجتماعية عن عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون، ويعتقد الباحث بأن أهمية هذه الفصول تأتي من كونها هي المادة الرئيسية الثانية في التراث العربي التي تناولت بلاد الروس بعد رسالة ابن فضلان الشهيرة والني وقعت سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١هـ. هذا إذا استثنينا الإشارات التي وردت في المراجع العربية والتي جمعها الكسندر سييل في كتابه «أخبار أمم المجوس».

من الأرمان وورنك والروس، والملتقطة من مروج الذهب للمسعودي وتاريخ الأنـدلس لأبي بكـر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، ومن المقتبس والمســالك والممالك ونزهة المشتاق والاستبصار والمطرب في اشعار أهل المغرب لابن دحية والكامل في التاريخ، وكتاب بسط الأرض لابن سعيد المغربي وأثار البلاد، والبيان المغرب والمختصر في أخبار البشر ونهاية الإرب والعبر ونفح الطيب، والبلدان لليعقوبي والأعلاق النفسية لابن رسته ونظم الجواهر لسعيد بن البطريق وكتب البلدان وخاصة معجم ياقوت وغيرها من المؤلفات التي اكتفت بإيراد نصوص محدودة، بل لعلي لا أبالغ إن قلت «كان كتاب الشيخ الطنطاوي هو الأكثر

---

(١) تحفة الأذكياء، ١٢٥-١٢٧.

تفضيلاً في تناوله لجوانب الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الروسي من خلال مشاهداته وخبرته الطويلة فقد عاش هناك أكثر من عشرة أعوام، وسجل ملاحظاته بدقة متناهية. وقد تناولت دراساته الاجتماعية الأمور التالية:

ـ عوائد الروس:

ذهب طنطاوي إلى أن عادة الروس عامة الكرم والإنفاق وحسن المعاشرة، وهم يميلون إلى الفخر والكبر، وقد عزا ذلك إلى تقدم الروس في التمدن والعلوم زمن بطرس ولكنه أورد هنا مقالة للعلاء بن صاعد، صاحب طبقات الأمم، ليذكر بما كانوا عليه قبل عهد بطرس الكبير، فقال «مقتبساً من ابن صاعد» أخلاق الروس موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة وقلة الصلاح وكثرة الأباق»[1]، وقرر الطنطاوي بأن الروس كانوا في القديم مشهورين بالجبن حتى استعبدهم التتار، أما الآن فانعكست القضية، والناس في المجتمع الروسي ليسوا متساويين ولا من مرتبة واحدة، بل هم مراتب، ولكل مرتبة امتيازاتها وحقوقها ولا يجوز لأحد أن يتخطى مرتبته إلا في النادر، وهذه المراتب هي:

المرتبة الأولى: الأعيان، المتوارثة، حيث أن الرتبة يرثها الابن عن والده، وهؤلاء يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإن تزوج أحدهم بإمرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، غير أن هذه الرتبة تنقسم بدورها إلى درجتين:

ـ أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمن بطرس الأكبر. واسماؤهم محفوظة في الكتاب الثالث.

ـ وأعيان: وهم من كانوا بعد زمان بطرس الأكبر. وأسماؤهم في الكتاب السادس.

---

(١) تحفة الأذكياء، ق ١٥١.

والتفاضل بينهم يكون إذ يسمح للفئة الأولى بتربية بناتهم في دير أسموليني بدون إذن القيصر، في حين أن الأعيان لا بد لهم من الاستثناء من القيصر نفسه حتى يمكن لبناتهم الالتحاق بتلك المدرسة.

كما إذا انضم أحد أعيان الأعيان إلى النظام (الهيئة السياسية) عين برتبة وكيل ضابط (تحت ضابط) وبعد سنتين يترقى إلى رتبة ضابط.

المرتبة الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون الذين أنعم عليهم القيصر بالأوسمة، حتى إذا ما أنعم عليهم القيصر بالرتبة عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم امتيازاتهم في الأرض وشراء العبيد.

المرتبة الثالثة: التجار، وهم لا يعدون من الأعيان، ولو ملكوا الملايين، حتى إذا تزوج من الأعيان حط رتبتها، ويمكن أن يرقى لرتبة الأعيان إن فعل وقدم خدمات جليلة للدولة، ولكنها نادرة، وهم لا يدخلون النظام إلا طوعاً ويكون وكيل ضابط وبعد ثلاث سنوات يترقى ولهم الخروج من النظام متى شاءوا وإذا أفلس التاجر أصبح من أولاد البلد، ولكن سمح للتاجر بعدم حلق ذقنه، إذ العادة بأن اطلاق شعر اللحية لا يكون إلا للأعيان وأعيان الأعيان والأمراء والأسرة القيصرية.

المرتبة الرابعة: أولاد البلد، وهم عامة الناس، وبإمكانهم الترقي إلى رتبة التجار، فإذا دخلوا النظام فلهم حكمهم.

المرتبة الخامسة: الفلاحون، ويبقون كما هم إلا إذا أخذوا في النظام فلهم حكمهم وإلا فلا يترقون إلى المرتبة الأولى.

المرتبة السادسة: العسكر، إلا إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الاكتاف بالقصب صار من الأعيان، وبعد خدمة خمسة عشر سنة ربما يترقى إلى وكيل ضابط (تحت ضابط)، إذا كان حسن السلوك ثم إلى مرتبة ضابط أو يمكنه التقاعد.

المرتبة السابعة: الأرقاء، ولا يجوز شراؤهم إلا من قبل الأعيان مع الأرض وليس لهم سوق يباعون فيه كما عند العرب، ويجوز اعتقاهم أو يشترون أنفسهم والرقيق حتى ولو اغتنى لا يصير عيناً إلا إذا صار عسكرياً وترقى.

وقد وضع نظام دقيق لتربية وتعليم الأعيان، فمن درس في المدرسة الامبراطورية الكبرى ووصل إلى درجة النجيب «كايذيذان» يكون من الصنف العاشر، إن أحسن البحث والإجابة، وإلا فيعطون درجة «التلميذ المجتهد»، وإن قصر فلا يستحق شيئاً أما إن درسوا في المدارس الصغيرة، فلا يستحقون رتبة إلا إذا أعطت لهم، وتكون الرابعة عشر ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات.

وأما ابن التاجر إذا درس في المدرسة الكبيرة ووصل مرتبة النجيب ثم أعمل الجد والإجتهاد في البحث والمناقشة، أعطي رتبة مجيستر يعني «عالم» ويكون من الصنف التاسع ثم إذا اجتهد أيضاً، وعمل بحثاً ونوقش فيه ومهر وصل إلى رتبة الدكتور وتعني «فاضل»، ويكون من الصنف الثامن ثم إذا خدم وترقى وصل إلى مرتبة «السابع» ومن الممكن أن يترقى إلى رتبة الجنرال.

وأما في الملابس:

فقد وصف الطنطاوي ملابس الروس، وقارن بين أزيائهم القديمة والجديدة، ففي القديم كان لباسهم مقتصراً على قميص افرنجي، من الشيت أو البفت أو الجوخ ثم جبة طويلة محزقة، وأما القسس فلهم جيب طويلة عريضة الأكمام مثل الفرجيات عند علماء مصر، ولكن منذ عهد بطرس، غدت ملابس الروس كما ملابس الأوروبيين، ويتكون من قميص أبيض، غطى جيبه بقطعة بفت عريضة ثم الصديريات المفتوحة ثم السروال الضيق والجبة الافرنجية.

ولكل فئة من فئات المجتمع ملابسها الخاصة، فالضباط يلبسون بدلة بطوق قصب بحسب الرتبة، ومنهم من تكون بدلته كلها مقصبة.

وللمنـاسبات عند الروس ملابس خاصة، فبدلة الرقص هي الولبة، ولغطاء الـرأس أشكـاله من القبعات (البرانيط)، ومنها المسنمة الريشة أو بلا ريش، أو القبعة السوداء المدورة العالية بحواف عراض، مستطيلة أو مربعة، وتلبس النظام مثلها ـ وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة وشرابة من شعر الخيل.

وأمـا لبـاس النسـاء فتتكون من القمصان والألبسة والإزارات المربوطة على الـوسط، إضـافـة إلى الفسـاتين المعمـول لهـا الكرسيت[1]، أو فساتين واسعة الجيوب، ويربـطن على أعناقهن مناديل، وأما فساتين الرقص فتكون بلا أكمام ونصف صدورهن تكون مكشوفة، وفي الأيدي توضع الكفوف.

والفلاحات يلبسن السرفات وتضع على رأسها قبعة عريضة.

أما عادات الزواج عند الروس: فتكاد أن تكون كما هو معروف.

فالـروس لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه. فيتم الاختيار المباشر بواسطة الخاطبة، وحيث الطـلاق عسر، فلا بد من معرفة الطباع، فإن وقـع العشق، كانت الخـطبـة وتقـديم خاتم الذهب، ويتم الزواج ومراسيمه بحسب أصول الديانة النصرانية، والاحتفال كما هو معروف، لكن الانتقال لا يكون إلا بعربات الملك، ولكن في اليوم الثاني يقوم العروسان بزيارة الأقارب حيث تعقد حفـلات الـرقص، وإذا ما اختلف مذهب العروس والعريس فإنه يتم عقد القران مرتين، مرة عند قسيس الطائفة التي تنتمي إليها العروسة ومرة أخرى عند القسيس الذي ينتمي إليها العريس، وأما المهر وكل ما يتعلق بالأثاث والبيت فتعطيه الزوجة.

وقـد تحـدث الشيخ الطنطاوي عن كثير عن حالات الغش والخـداع بين

---

(١) خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر.

العشاق، حتى إذا ما نال الشاب إربه اختفى من حياة الفتاة المخدوعة، وأشار إلى افتراق العديد من الأزواج عن زوجاتهم واختيار كل واحد معشوقه ليساكنه.

وأما عادات التتر في الزواج فكما عند المسلمين، وليمة فعقد نكاح بخطبة نكاح ووكيل وشهود ومهر يدفعه الزوج، ومن ثم تقديم الهدايا للضيوف وأخذ النقطة من الضيوف.

وتناول الطنطاوي عادات الروس في التعميد والاحتفالات التي تقام بالمناسبة، كما شرح الأعياد التي يحتفل بها الروس، والأيام التي تعطل فيها المدارس والمعاهد والجامعات وكان عددها ٢٨ مناسبة.

أما ما أسماه بالخط العمومي (الفصل التاسع) فقد اشتمل على وسائل التسلية العامة للناس، ومنها التياتر والنوبة والرقص والمسخرات ولعب الورق وجري الخيل حيث سجل تاريخ نشأة التياتر وكيف وصل إلى روسيا سواء من إيطاليا أو فرنسا أو انجلترا أو النمسا، حتى غدا دار أوبرا تعرض فيه الفنون الروسية والأوروبية الأخرى، كما فصل في تكوين الفرق الموسيقية، (النوبة)، وتحدث عن آلاتها ولاعبيها وقارنها بمثيلتها في مصر، وعلق الطنطاوي على الرقص، ووصفه بأنه مجرد حركات خالية من الفحش وهز الأرداف، وفيه يجتمع الرجال بالنساء، حيث يتكلف الرجل في مخاطبة المرأة مالا يتكلفه في مخاطبة الرجل، وذهب طنطاوي لو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلا قصر النظر عليهم وعدم التعلق بالغلمان لكفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قال في ذلك شعراً:

ولو أن النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجه	ساطع نوره بغير لثام
قلبت برقعاً بعقرب صدغ	أفمن لدغه الخدود دوامي
ولكل امرىء جليس أنيس	فاتقوا الله يا أولي الأحلام

أي عذر في عشـــق رب عذار   في هوى الـغــانيات أي ملام

وأما أنواع الرقص التي كان يمارسها الروسي، فالفلس، والقادريل الفرنساوي والمازورق وقد وصفها وصفاً دقيقاً، ويبدو منه أن الشيخ كان راقصاً متفوقاً وفصل في وسائل وأساليب المسخرات ولعب الورق وأنواعه وكيفيته وجري الخيل وطرائقه وأنـواعـه حيث خلا من المـراهنات والخسارة المادية وقام على المهارة في أداء حركات الفروسية.

وأفرد فصلاً لتقدم الروس:

تقـدم الـروس في العلوم والفنون وله أثر في إنشاء الأكاديميات مثل العلوم والتصوير والطب وغيرها وتأسيس المدارس الكبرى مثل المدرسة القيصرية الكبرى حيث يدرس فيها الطلبة أربع سنوات بعد المراحل الأولى، ويتلقون فيها علوم الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن الطبيعية والجغرافيا والتواريخ والألسن حتى الألسن الشـرقية، كالعـربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرميني والكرجي وغيرها.

ويعقد لهم في نهاية كل عام حلقة بحث لكل موضوع، فإن أجاب رقي إلى السنة الثانية: وكان في روسيا ست مدارس كبرى و ٢٣٠ مكتباً للأطفال، يتعلم فيها الصبيان والبنـات؛ النحـو والمنـطق والـرياضيات والأدبيات والجغـرافيا والتاريخ والألسن والـرقص والتصـوير والمـوسيقى والخياطة وشغل الطارة والإبرة والنسيج للبنات، والأطفال يزاد اللاتيني والروماني القديم كما للصم والبكم مدارس، وقد حضر الشيخ الطنطاوي حفلة رقص للصم والبكم، حيث كان العازف على القانون أعمـــى والــراقصـون صم بكم، وأدى العـزف نوبـة راقية ورقص الصم والبكم بحركات وتعبير أدهشه.

وحتى اللقطاء فلهم بيوت للتربية ذكوراً كانوا أم إناثاً، وقد قرر بأنه حتى تاريخه

لم يكن هناك بيوت للقطاء في ديار الإسلام.

كما نبه إلى أنه لا حرج من أخذ الأديب أو العالم أجراً إضافياً عما يكتبه في الجرائد والمجلات، وضرب مثالاً بما تقاضاه الأديب مسيو سكريب حيث بلغ دخله الإضافة ١٨٣٢م، ٤٨,٠٠٠ فرنك.

وفصل طنطاوي في المجلات والجرائد التي كانت معروفة عند الروس مثل الجرائد اليومية وهي، نخل الشمال، السقط، أخبار بتربورغ، والشهرية مثل، ابن الوطن، والكتابة الوطنية والمعاصر، وكازيطية (مجلة) الأدب، وخزانة الكتب، ثم الجرنالات الشهرية للأطفال والتي تحوي نبذاً من العلوم والحكم والحكايات المسلية.

كما قدم الطنطاوي في الفصل التاسع وصفاً لسكن الروس ومعيشتهم ومركوبهم مما لا يختلف كثيراً عما هو معروف في أوروبا بصفة عامة، ووصف أنواع الطعام التي يتناولها الروسي عند الإفطار والغداء وعند المساء، وعادات التدخين وحتى استخدام النرجيلة، وكذا العربات بأنواعها التي تجرها الخيول أو عربات الزحلقة.

وختم كتابه بإعطاء لمحة سريعة عن اللغة الروسية وقواعدها النحوية وكيفية اشتقاقها من اللسان الصقلبي والتاتاري والفرنساوي والنمساوي، وإلى هنا حبس عنان قلمه قائلاً:

يراعى كفي الخوض فالبحر زاخر ولا تتجارى قد جرى منك يا كفي

لقد كان رائد الشيخ الطنطاوي رحمه الله وضع مدنية وتقدم الروس أمام أولى الأمر سواء في مصر أو الدولة العثمانية، فكأن كتابه جاء تقريراً مطولاً يهدف إلى التنوير والإصلاح، يحاول من خلاله أن يحذو حذو الشيخ الطهطاوي فهل كان لتقريره الأثر المنشود.

أهمية رحلة الشيخ الطنطاوي:

لا أرى أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت ذات تأثير في الفكر العربي الحديث مقارنة برحلة الشيخ رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا، فالرحلة إلى البلاد الروسية بقيت بعيدة عن تناول الباحثين والكتاب لسنوات طويلة، بل إنها ظلت مغمورة على رفوف المكتبات فيما عدا النفر القليل الذي ساعدته الظروف في الاطلاع عليها، ولعل مرد ذلك يعود لعدة أمور منها:

- إن رحلة الشيخ طهطاوي كانت لبلاد قد تقدمت في مضمار النظم الدستورية والتعليم والصحافة والحرية والتربية والثقافة في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي قد وقعت لبلاد آخذة في أسباب المدنية والثقافة وتسعى للنهوض بالمجتمع.
- لقد عاد الشيخ الطهطاوي إلى بلده مصر، ووضع ما شاهده وخبره وما صادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيا تلك البقاع، من فكر سياسي واقتصاي واجتماعي وتربوي وعلمي، وساهم بذلك من خلال المؤسسات والمعاهد العلمية التي عمل في إدارتها والجرائد التي رئس تحريرها والمصنفات المترجمة التي نقلها إلى اللسان العربي، فكان تأثيرها النظري مقروناً بالتطبيق العلمي في حين أن الشيخ الطهطاوي عاد إلى بلده بعد أربع سنوات ليصحب زوجته إلى مكان عمله واستمر هناك حتى لقي ربه.
- لقد كان هدف رحلة الشيخ الطهطاوي محدداً وواضحاً منذ البداية وهو إمامة طلبة البعثات إلى فرنسا، ومن ثم الدراسة والانخراط في الحياة العامة، ولكن بعين ناقدة ناقلة، في حين أن رحلة الشيخ الطنطاوي كانت للعمل في التدريس في بطرسبرغ. وبعدما وافق على العرض، استأذن محمد علي في السفر، فحضه محمد علي على تعلُّم لسان الروسيا، ووعده بالإكرام إذا تعلمه، وكتب له مرسوماً بختمه كدليل على التزام محمد علي بما وعد، ولا نعرف من سيرة الشيخ إن كان قد قابل محمد علي مرة أخرى أو كتب له بما شاهده وخَبرَه وصادفه في البلاد

الروسية، بل اننا نجد في ديباجة مقدمة الرحلة ما يفيد أنها أُهديت للسلطان عبد المجيد، وافتتحها بقصيدة في مدح السلطان عبد المجيد، والباحث يطرح سؤالاً مهماً إزاء ذلك، فالعلاقات بين الدولة العلية ومحمد علي باشا كانت متوترة، بل وعدائية في بعض الأحيان، ورأينا أن الشيخ الطنطاوي قد أقدم على إهداء الكتاب للسلطان عبد المجيد بعد وفاة محمد علي باشا وسوء الأحوال في مصر، فرأى في الدولة العلية الأكثر أحقية في تقديم الكتاب إلى سلطانها.

- إنّ منهج رحلة الشيخ الطنطاوي قد نُسج على منوال رحلة الطهطاوي، والرسالة المتبادلة بين الاثنين، الطنطاوي والطهطاوي تدعمنا فيما ذهبنا إليه، فقد اشتملت على منهج رواية الرحلة وجغرافية المكان والسكان ونظام الحكم والملبس والملاهي (وخاصة التياتر والرقص)، والتربية والصحة والتعليم والنظافة، ويهتم بالوسائل الاثنوجرافية (موقع المدينة ومناخها، وطبيعة تربتها، والطبقات التي تكونها خطوط الطول والعرض الآخذة بكروية الأرض والمناخ، وكذا المظاهر الحضارية المتمثلة في التعريف بفروع المعرفة، وأسماء المعاهد والجمعيات العلمية والأدبية، وأسماء المكتبات والمتاحف والحدائق العامة، وقضية المرأة في مجال العمل والعلم والاجتماع، وقضايا السفور والحجاب).

- وبالرغم من ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تعد وثيقة أدبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تعرف أيضاً بحال اللغة في القرن التاسع عشر والمصطلحات التي كانت سائدة، وتعرض للعديد من القضايا اللغوية من تورية وتلميح ونحت واشتقاق واقتباس، وكذا النقل والترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، إضافة إلى ما تزخر به ثنايا الرحلة من كلمات عامية مثل (فرنجي، ساوت، الأضياف، انسر، فوقانها، السُفر أي الموائد، وغيرها، علاوة على المواويل التي ضمنت في الكتاب، والنكات واللطائف.

ومع ذلك، فإن رحلة الشيخ الطنطاوي تظل ذات قيمة عالية وشاهداً على

العلاقات العربية ـ الروسية، وأثر الفكر العربي في التأثير على حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر، والرحلة وإن كانت تالية لرحلة الشيخ الطهطاوي من حيث الأهمية، فإنها تقف في صف واحد مع رحلة الشدياق، كشف المخبا والساق على الساق، ومُقَدَّمة على رحلة فرنسيس مراش، رحلة إلى أوروبا، ورحلة محمد شريف سالم إلى أوروبا، وأمين فكري في إرشاد الألباء إلى محاسن الأوروبا، ورحلة محمد بلجوجة، سلوك الأبرياء في مسالك باريس، وعلي أبو الفتوح، سياحة في أوروبا، والدنيا في باريس لأحمد زكي، ورحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، وجولة في ربوع أوروبا لمحمد ثابت، وتحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

مصادر ومراجع المقدمة

- أحمد مختار

رحلة سمو الأمير محمد علي باشا في جنوب إفريقيا سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤م، ط القاهرة، مطبعة الاعتماد. دت.

- آدمز، شارلز

الإسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس العقاد، ط القاهرة، ١٩٦٠م.

- حجازي، محمود فهمي

أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

- حسين فوزي النجار

رفاعة الطهطاوي (رائد فكر وإمام نهضته)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م (سلسلة أعلام العرب رقم ١٣٠).

- خالد زيادة

ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

- خليل مردم

أعيان القرن الثالث عشر، قدم له وعلق على حواشيه عدنان مردم، ط

الثانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٧م.

- الخفاجي، محمد عبد المنعم
الأزهر في ألف عام، بيروت، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ٣ مجلدات، ط الثانية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

- الزركلي، خير الدين
الأعلام، بيروت، ١٩٧٩م.

- شيخو، لويس
الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ط بيروت.

- الطهطاوي، رفاعة رافع
- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، مطبعة بولاق ١٢٦٥ هـ.
- مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية، مطبعة الرغائب، ١٣٣٠ هـ/١٩١٢م.

- علي مبارك
الخطط التوفيقية، ط مصر ١٩٨٦م.

- فتحي رضوان
دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦م.

- كراجكوفسكي، (أغناطيوس)
مع المخطوطات العربية، ط، موسكو، ١٩٦٣م.

- قلفاط (نخلة)
تاريخ بطرس الأكبر، ط بيروت، المطبعة اللبنانية، ١٨٨٦م.

- محمد ثابت

جولة في ربوع أوروبا (بين مصر وايسلندا)، ط مصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨م.

- محمد عبد الغني حسن

أعلام من الشرق والغرب، عربي في بلاد الصقالبة، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد ١٩٤٩م.

- ناجي نجيب

- الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٣م.

- رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك، بيروت، دار الكلمة، ١٩٨٣م.

- الدوريات والمجلات (مقالات)

أحمد تيمور، مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي»، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، (٤١٧ - ٤٢٨)، ١٣٤٧ هـ.
ونشرت أيضاً في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد الرابع، الجزء التاسع، والجزء الثاني عشر، ١٩٢٤م.

- كراجكوفسكي (اغناطيوس)

- مقالة «الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة الزهراء، المجلد الأول، الجزء السابع، ١٣٤٧ (بالتعاون مع أحمد تيمور).

- محفوظ حسين علي

محمد عياد الطنطاوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السابع، ١٩٦٤م.

- محمد أمين حسونة

محمد عياد الطنطاوي، مجلة الرسالة، العدد ٥٤٩، يناير ١٩٤٣م.

مصادر أجنبية

- **Kosegarten, J.G; Scheikh Tantawi**

  Zeitschrift Fur die Kuwde des Morgenlands, vll: 1850 PP. 43-67, 197 - 200.

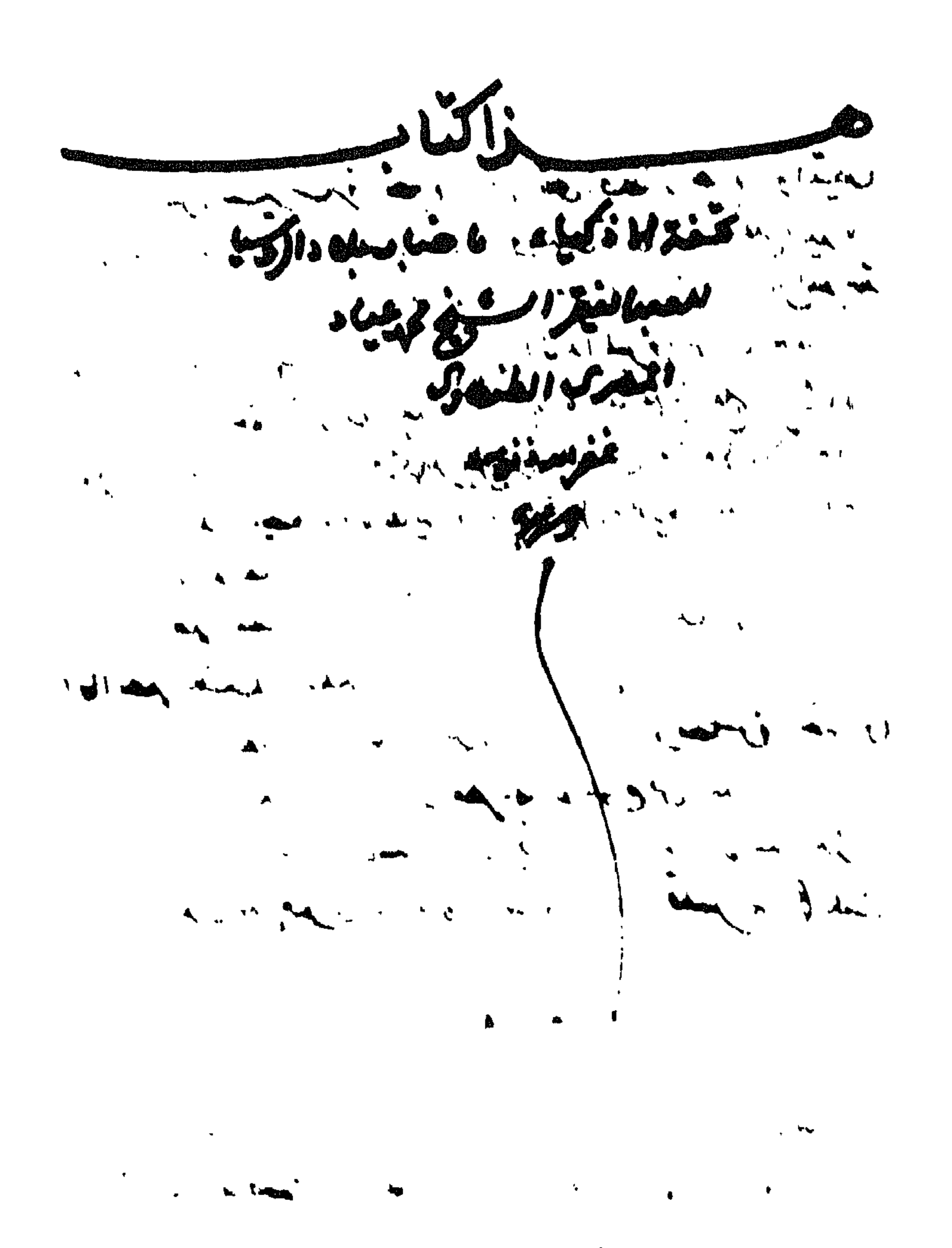
  ZDMG. IV: 240 - 243.

- **Levitsky, H**

  Kiev, Mistetstvo Publishers Kiev, Progress Publishers, Moscow, 1980.

- **Marquis de Custine**

  Empire of the Czar (a journey through eternal Russia, 1939, U.S.A. 1989.


هذا كتاب
تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد

صورة صفحة العنوان من المخطوط

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

وحيث ينبغي أن يتنبه له أن المترجم من لسان لا بد أن يلاحظ
ما يكون مقبولاً في اللسان الآخر والأغيار كما فعلت في هذا الشعر الأخير
فإن أن عرشه في الأصل القائم بالنخلة الهندية وهذا بديع
في اللسان الروسي مستهجن في العربي فلذا غيرته إلى الإبانة والمودة وأكده
وهنا حبست عنان القلم وله قلت

يراعي كف الخوض في البحر الزاخر ... ولا تتجارى [?] تحرك منك ما يكفي

والله الهادي وينبغي أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً
عند السدة العلية والعتبة الخاقانية وأن ينظر إليه العلماء
الأعلام بعين الإنصاف وأن يحيدوا عن سبيل الاعتساف
في تسميته إلا التيسير وما مرادي إلا التذكير إن أريد إلا الإصلاح
ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وقد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من الهجرة النبوية
على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ذلك
لأوائل نوفمبر التاريخ سنة ١٨٥٠
من الميلاد والله ولي السداد
على يد مصنفه الفقير محمد عياد
الطنطاوي
المصري
ببترزبرغ

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا للعبـد الفقيـر الشيـخ محمد عياد المصري الطنطاوي غفـر الله ذنوبه وستر عيوبه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢/ حمداً لمن سيَّر سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيّضَ ٢/ له أعواناً يعضدونه وأنصاراً يحمدونه، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، وودّه الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، آناء الليل وأطراف النهار.

أمّا بعد؛

فيقول محمد بن سعد عياد ـ أجراه الله على مناهج الرشاد ـ: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعِلم لا حدَّ له ولا نهاية، وبحره لا سيفَ له ولا غاية، والمشتغِل به كل يوم يدرِك جديداً، ويستنبط بديعاً فريداً:

ما حوى العلم جميعاً رجل لا ولو مارسه ألف سنه
إنّما العلم بعيداً نيله فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسفار، وجَوْب البراري ووالبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد، وأمّا مَنْ لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج، وكان ضيّق العِطن، قليل الحجة، كما قلت حين سافرت:

ومَن لم يغترب في كل قطرٍ فكالطفل الذي في حِجر أمِّه
تراه ساذجاً لا عِلمَ يدري ويبكي حيث فارقها لهمِّه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط

اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني[1]، بقول الشاعر:

يومـاً بجـزوى ويومـاً بالـعـقيق وبالعُذيـب يوماً ويوماً بالخُليصاء

٣/ ويقول الحريري؛

أنـا في الـعـالـم مُثـله ولأهـل الـعِـلم قِبـلهْ
غير أنّـي كلَّ يومٍ بين تعـريسٍ ودُخْـله
وغـريب الـدار لو حلَّ بطوبـى لم تَطِبْ لهْ

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي؛

يا واقـفـاً بين الـفـرات ودجـلة عطشـان يطلب شربـة من ماء
إن الـبـلاد كثـيرة أنـهـارهـا وسـحـابـهـا فغـزيرة الأنـواء
ما اخـتـلت الـدنـيا ولا عدم النـ ـدى فيها ولا ضاقت على العلماءِ
أرضٌ بأرضٍ والـذي خلقَ الورى قد قسَّـمَ الأرزاقَ في الأحـياءِ

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أُعلِّمُ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان، وتأسفها على فراق الأهل والخِلّان.

قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، ت ٧٩١ هـ/١٣٨٩م. انظر السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩١، ابن حجر: الدرر الكامنة، ٤/٣٥٠، الشوكاني: البدر الطالع، ٢/٣٠٣.

أن أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله، يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها، فقال:

ولي وطنٌ آليتُ أن لا أبيعه	وأن لا أرى لغيره الدهرَ مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمةِ يومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ	مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذَكَروا أوطانهم ذكَّرتهمُ	عهود الصِّبا فيها فحنُّوا لذالكا
٤/فقد ألِفَتهُ النفس حتَّى كأنَّه	لها جسدٌ إن بان غودرَ هالكا

وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أُسطّرَ في سفري هذا كتاباً، أودع فيه ما يَعذُب مذاقاً، ويطيب شراباً مِن بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرَف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت الامتثال، وشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة الروسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد النقض حسن إبرامه، أردت أن أُشرف ديباجته، وأُزين فاتحته بذِكْر اسم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وارث تخت السلطنة كابراً عن كابر، الممدوح اسمه على أعواد المنابر، السائر عدله سير المثل السائر، والسائل كرمه سيل البحر الزاخر، حامل أعباء الخلافة على كاهله، ومجدد ما اندرس من معالم الدين ومناهله، الباني على ما شيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة من المصالح، حامي الدولة العلية، وناصر المملكة العثمانية، القائل عزمة الظافر، كم ترك الأول للآخر، والمنشد فخره بين الملأ، قول المعري أبي العلاء:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه	لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

والمتمثل رعيته لما عمّها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل: «جاءنا آخر

الـزمان كما تفتر عند الأصائل الأزهار». مولانا السلطان ابن السلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأييد على التأييد مولانا السلطان ٥/ عبد المجيد:

لا زالَ للإسـلام أشـرف كعبـة	لم تخْـلُ يومـاً من طوافِ وفود

وقلت مقرظاً اسمه الشريف بقصيدة أوّل صدورها حضرة السلطان عبد المجيد خان، وأوّل أعجازها خلّد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالـظبى هيفـاء بنت عيد	خدود ورود عن ورود عيد
ضنيت أسىً من ميلهـا وهي بانـة	لهـا حسن ثغـر كالجمـان نضيد
رنت بلحاظ فاعترى الظبي خجلة	دهـتـه وآوتـه لبـلقـعِ بيدِ
هفـا نحـوهـا قلبي فقـال رقيبهـا	أتـهـفـو فقـلت الـلوم غير مفيد
أأنـقـاد غياً في هواهـا كمسلم	لهـدي أمير الـمـؤمـنين رشـيد
لفخـر بني عثمـان خاقـان أرضهـا	لحـائـز مجـدٍ طارفٍ وتـليد
سليل الأسـاطين الكـرام وفـائق	هصـور طويل البـاع أصيد صيد
له الله من ملكٍ محـا بحسـامـه	مآثـر ظلم في الـعـبـاد شديد
طبـيب بأدواء الـخـلافـة عالـم	لديه دواء الـجـبـر ليس بعـيد
أفـاض على الإسلام صيّب عدله	كغـيث على قفـراء جس جيد
نمـا الخصب ما بين الـرعايا بوقته	هنـيئـاً لتـنـظيم أشـاد سديد
علا درجـات ساميات إلى السهى	إلـى حسـب عالـي النجـار عتيد
بنى وأقـام الـدين فازداد مجـده	لهـذا دعـاه النـاس عبـد مجيد
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم	يسـير إلـى الـيمـين بكـل سعيد
أعـدَّ لنصـر الـدين كل سُميدع	أفـاض عليه سابـغـات حديد
لعسكـره الجـرار صولـة زاخـر	خضـم بأمـواج الـرداء مديد
مهيب شديد البـأس في حومـة الوغى	رؤوف وحـيد الـعـصـر خير فريد

جرى مدحه في عالم الأدب الذي أتـــى بنـــظام معـــجـــز للبـــيد
يجـود على العـافي بجـزل رفـده لمـحســوب ذياك الحمى ووصيد

٦/دنـوت بآمـالي إلى روض جنة زهـى حلا شِعــري به وقـصيدي
خدمت ببيت الشعــر عالي بابـــه مريد الـعـلى فالبــاب خير عميد
أتـــيت إلـــيه خاضـــعـــاً لعـــلوه أخـــوض غمـــاراً أو بطيء بريد
نعـــمـــنـــا ولـــلدنـيا به ورعـيتـــه نعـــيم فأيام الأنـــام كعـــيد

مقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتر بورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مارس الافرنجي (يعني آذار) سنة ١٨٤٠م مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية، الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا ونحوها، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يوماً، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مارس، ويسمى الأوّل الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأوّل السنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم من حيث أني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالروس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشييع:

وكان أوّل عهد العين من جَزعٍ ... بالدمع آخر عهد القلب بالجَلَدِ

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادىء، والقمر هادىء، والملاح حادي، والنوى شادي، فهبّت بعد برهة ٧/روائع الأزهار، فاستنشقها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنينة شبرى الفائقة على البساتين قدرا:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها ... فنمَّ عليها عَرفُها وسوارها

ثم في الصباح، تلاعَبَ الموجُ بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد يقال لها «زاوية رزين»، وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زنّى وكثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف الصيداوي مجيباً في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منها انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التورية، وقوله: والفلك فيكم جرى، معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر:

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة في السما

ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجرايان وتجديف غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر الإسكندرية ليلة الجمعة بعد غلق الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشيراً لقصة زليخا مع يوسف لمّا غلّقت عليه الأبواب وقالت له (هيت لك)، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك فغلّقت أبوابها ولم تقل لي هَيْتَّ لك

٨/ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة الروسيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في بلاد أمريكا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعاً بغاية الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بلاد الروسيا، وذلك أنّ الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

النـــاس بالـنـــاس فلا تنفـــرد وكـــن أخـــا حزم وتـــعـــيش
ما لقـــويٍّ عن ضعـــيف غِنـى لا بدَّ للســـهـــم من الـــريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغربية، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكي تكـون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسية، وكثرة ارتباطها بالدول الغربية، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد فيها من أهل الألسن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء سعادة «الكونت نسـل روض» بالألسن الشـرقية، فأنشأ لها مدرسة مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمـومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في الأوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل الجنرال «مرزا جعفر» معلم اللسان الفارسي، ومربي التلاميذ والتراجمة الـروسية، ليس فقط في هذا اللســان بل وفي اللســان التـركي، وفيهـا الجنرال «ديمـزون» وهو وإن كان ليس مشرقياً، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث إنه يتكلم بها بالسهولة، ومن حيث إن سعادة الوزير مفتن بإحياء مدرسته، ولا زال في كل حين يجتهـد في تسهيل ٩/تعلّم التـلاميذ، فلهذا لما توجه جناب «الكونت ميدن» إلى الديار المصرية كلفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث اني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرنيل» الذي طالع معي كتباً عربية أدبية وتاريخية،

واكتسب في هذا اللسان مهارة ألمعية، بسبب كثرة صحبة العرب وألمعيته. طلب مني الذهاب، فأجبت ومِن مدة بضع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذِن لي وطلب حضوري، فمثلت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فامتثلت أمره المأنوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسيا، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته، لأنه مشغوف بجلب الألسن الغريبة إلى بلاده، ولهذا ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصاً في اللسان الفرنساوي، وكتب لي مرسوماً بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقاً لمصر وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم ... لتناءي صحابة وحميم
حيث فارقت غير قالٍ دياري ... ومباني علومها والفهوم
حيث نيطت عمائمي وألمت ... بي ثيابُ الصبا وبرد النعيم
تعتريني الخطوب منكدرات ... تتوالى وتارةً في نجوم
ولثغر الإسكندرية يممت ... لطرد العنا وصرف الهموم
بلد أهله حماة ذمارٍ ... لم يكونوا كمثل ذا من قديم
ودعاني عزيز مصر إليه ... وحباني بالعزِّ والتكريم
قال لا تُضع زمانك إلّا ... في اكتساب العلوم والتعليم
فيميناً لأرحلَنَّ سريعاً ... لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجمٌ وكم بمصرَ شموس ... ومع الشمس كيف مرأى النجوم
١٠/فلهذا برزغت نحو بلاد ... أنا فيها شمس لكشف الغيوم
في سفين النيران قالوا ولكن ... هي عندي تدعى سفين النعيم
جنة جُنَّة تجود في البحر ... ولو هاج مثل خيل هيم
ما شراع بها فيخرقه الر ... يح وتلقى حملاً كحمل الدهيم
مثل ما قد عانيت في نيل مصر ... حيث كنا تحت العناء الوخيم
كم سفين هوت بما كان فيها ... لاعتساف الملاح من سوء خيم

ثم نزلت في سفينة بخار نيمساوية ٢٦ آذار وفيها ثلاث درجات؛

الأولى: جهـة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض: ديوان وسفرة للطعام، وفيها كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السكّان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكراد.

ووقت الغذاء مقرر، وكل مَن طلب شيئاً أحضره له الخدامون، ولو كان الثمن أغلى بسبب عدم السوق، وسرت في البحر الأُجاج، المتلاطم الأمواج، وذلك أوّل ركوبي المالح، والوابور، فحصل لي دوخة وتقايآت، وضاقت نفسي، فذكرت قول ابن رشيق:

البـحـر صعب المـذاق مرٌّ لا جُعِـلَت حاجـتـي إلـيه
ألـيس ماء ونـحـن طين فمـا عسـى صبـرنـا عليه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

الـنـيلِ غضـبـان عليّ كأنـه لصـحـبـتـي لا يرتـضـي بتنـائي
وأرى الأُجـاجَ الملحَ عذبـاً سيره فكـأنّـه متـشـوقٌ للقـائـي

وقلت:

وابـورنـا ونـارُ كانـونـه من هول هذا البحـر نصـران
أزرقُ فيهِ زبـدٌ أبـيض كأنّـه كشـمـير نصـرانـي

١١/وفي ذلك اليوم لم نر أرضاً أصلاً كما قلت:

والبحـر أزرق كالسمـاء ولا نرى أرضـاً كأنّـا في طبـاق سمـاء

ثم وصلنا جزيرة جريدة ـ إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها

جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع. والإقامة فيها أحسن ما يكون في الدنيا كما قيل، لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفة، والمعادن الكثيرة، وافرة المحصولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتان والعسل والشمع والحرير والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيراً من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الرومان مليوناً ومائتي ألف، والآن نحو خمسماية ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء الجزيرة، وروم، وبعض يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة يحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم إذ كانت أوّل ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل، وفي الصباح اجتمعت الناس أفواجاً على الساحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافروهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبة لم تنقض جدتها ولا أظنها تنقضي. ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالاً لعملها، فأعطاه ثم لمّا عملها وسيّرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجمُّ الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأنّي سيرتها البارح، ولكن بعض الحساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة ألين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على ١٢/حسرته، وعضّ بنان الندم. وقلت في سفينة نار كان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُوَرِياً:

هذي العجيبة لا تَقَضّى جدة   هي جنة قد صُوّرَت من نار
فيها لبيت الله ساروا شُرّعاً   فغدت منافع مسلمٍ ببخار

وعسر عليّ جداً الخروج لرؤية هذه المدينة بسبب الطاعون المصري المقتضي حبسنا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث

الأكبر، فما خرجنا أبداً إلّا عند اسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ مَن لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولاً، فقلت:

يا راكباً لجج المياه مخاطراً لا تغترر إن مرّ يومٌ صالح
لا يُنضح الماعون إلّا بالذي قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت:

للروم بحرٍ أزرق كعيونهم لي مُقلقُ
لكنه متشعّبٌ والطرف منهم ضيّقُ
لا تعجبوا إن خِفتُه فهو العدوُّ الأزرق
فلذاك قلبي نحو بحـ ـر النيل دوماً شيّقُ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقي
لم أخشَ من خطر السفار وأتقي
بل جبتُ فيه مغرباً مِن مشرقٍ
وركبت لجةَ بحر رومٍ أزرق من خَطْبه هيهات ما لي مشفقُ
أغبر عيشٍ بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمرُ
وازور محبوب بديع أصفر
وقد حلا فيه الممات الأحمر وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري، فهذا أغبر العيش الأخضر. . إلخ. وقلت ١٣/:

يا ليتني مثل الحريري قد رثى له من الخُطَبِ العدو الأزرق

وقلت مواليا:

يا ناس على شان غزال البـــر في الأبحــار
نزلـت أدور وفـي الحــال خدت مركب نار
أنـــا ترابـي وجـــاني الـضـــد ليل ونـهـــار
أهـين من البحــر أهين من الهـــوا والنـــار

وفي «الهوى» بمعنى «الحب»، وكذلك في النار تورية بمعنى العشق.

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل الكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر.

ثم سرنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشجار والمباني، وهي شبه جزيرة لأن البحر لا يحيط بهـا من جميع النواحي، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب الخفـاجي: «وهـا هنـا نكتـة لطيفة»، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة «بـريسيكل» بالفرنساوية بقوله: «بحيث جزيرة» وهذا من ضِيق العطن، لأن هذا التـركيب لا يحسن في العربية، وزاد ذلك تعسفاً بضم الباء التي هي حرف جر فيكـون تصغير بحث، وهـو خروج عن البحث وقد غربت عنه فصاحة استعمال حيث، فإنها لا تضاف إلى المفرد إلّا نادراً، وأيضاً أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعـر، فإنـه ترجم بثـلاث كلمـات مع الـركـاكـة، فحقّ أن يقـال له: «حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة «بريسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

١٤/ومكلف الأشياء ضد طبـاعها   متــطلب في الـمـــاء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي: نصف جزيرة. وقد دخلت أزمير عند

رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلداً كثيرة الزحام، نافقة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلطات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانياً من مصر كرتنت في بيت ظريف على خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأعقمنا هذه الأعنـاب، فلم يولد لها بنت تسحر الألباب، ثم مررنا على بحر مرمرة، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكاً يطفو على الماء، وكذلك في الخليج القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة قسطنطينية المحروسة ونعمنا بطلعتها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جداً على الوصول ليلاً، بسبب عدم إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب القلعية تمكث شهراً أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يَدرِ عُبّـاد الـسـعـير بنـفـعـهـا	بل أجَّـجـوهـا في هبـاء هواء
وأرى الفـرنـج درت بخـالص سرها	إذ سيّرت سفـنـاً بهـا في الـمـاء
مع أنـهـم لم يعبـدوا فكـأنـهـم	قصـدوا التمـاس العـذر للقـدمـاءِ

ومـرسى اسـلامبـول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع، لأنها ملتقى أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل آسيا ١٥/وسفائن أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع مملوءة بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والأرمن والروم واليهود والفرنساوية وغيرهم، نافقة المتجـر، بهية المنـظر، يظهـر عليهـا الخصب والخير والتـرف والمير، وزوارقها كالقسي. ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنتينة في اسكـدار، وهي مدينـة كبيرة من آسيا أمـام اسـلامبول على شاطيء الخليج القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مائة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصاً من سراية حضرة مولانا السلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلمٌ ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال:

إنّ الـملوك إذا أرادوا ذكرهم ... من بعدهم فبألسن البنيان
إنّ البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على ارتفاع الباني

فقلت:

مذ لاحت اسلامبول وهي التي ... من يرها ودّبها مسكنه
علمت أني ضاع عمري سدى ... في مصر دار الذل والمسكنه
نسيت من حسن مشيداتها ... أني يُغدى بي إلى الكرتنه

فإن قلت: لِمَ قلت الكرتنة، وإنما هي الكرنتينه؟ لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين»، لأنها كانت أولاً كذلك، وأمّا الآن فأربعة عشر يوماً، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة اشتقوا منها فعلاً مع القلب فقالوا: كرتن يكرتن ومصدره الكرتنه. وقَصْرُ الكرنتينة باسكدار على الخليج، وبه أوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء. ١٦/وغيرها من المرافق، فلا يحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقربه مقبرة للمسلسمين وأخرى لغيرهم، فمن مات أيام الكرنتينه دُفن هناك، وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوارٍ ماتت إحداهن بالجُدري، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين فقد من اسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله:

قالت وقد عزمت على ترحالها ... ماذا تود فقلت أن لا ترجعي

فمتى تُفقد مِن مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد وتهلك العباد، وقد أُصبت في طاعون سنة ١٢٥٢ هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جداً وخيف عليّ الهلاك وقت البحران، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن الله سلّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيكِ يا كرةَ الخطوب إقامةً   وتدحرجري ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنتِ حجارة   فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، وانضم الفتح، وكان لي وِرْدٌ أقرأه للحفظ صباحاً ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك اليوم مستأخراً، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأُشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمناً:

تمنّى أُناس أن أموتَ وإنْ أمُت   فتلك طريق لست فيها بأوحدِ
وإن أظهروا موتي فليس بمُنكر   إذا أظهر الشيطانُ موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة قتل الشيطان محمداً، يعني النبي ﷺ في بعض الغزوات. ثم إنّ قصر الكرنتينه تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. ١٧/والجبل مملوءة بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محلة كجبل الجيوشي بمصر، فما ألطف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيّام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلدة كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام اسلامبول، وبها قبة عالية سلالمها كالمنارة، لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي نظرت فيها المراكب والقصور واسلامبول والمنارات، فنظرت من ذلك أحسن منظر، وفيها ساعة دقاقة من حديد، ثم ذهبت في زورق

إلى اسلامبول، فوجدتها لطيفة جداً إلّا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمّة مولانا السلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يوماً، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجد كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصاً قبور السلاطين، ففيها تأنّق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهليها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والسيلانة الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى والعطر، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي تختم بها وبيوتها مبلطة بالخشب وسقوفها مسنمة بالحجارة والخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر كما فيها أيام الشتاء وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في اسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحداً مات من عضة كلب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه ١٨/تارةً يتفق ولو نادراً وجود هذه المصيبة، وقد وجدت منذ سنين عدة كلاب بعضها كان بيتياً، وعض بنتاً صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها هذا الداء وهو كريه جداً، لأنه لا يقصر على من عضه الكلب، بل كل من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيواناً فيصير الإنسان أو الحيوان سعراناً، وكذلك كل من عضه وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر تارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكَلَب، قال الشاعر:

بناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْمٍ دماؤكم من الكَلَبِ شفاءُ

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «بالكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضاً الكَلْب المسمى الدانيماركي لا يوجد في دانيمارق، وقد تنسب بعض الأشياء

لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي تصنع في مصر مطاوي إنكليزي، والشفر ونحوها المشغولة في الروسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل، والمسلمون في اسلامبول يغلقون دكاكينهم يوم الجمعة، كما أن اليهود يغلقون يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يغلقون حوانيتهم إلّا في العيد الصغير والكبير.

ولقد صليت ١٩/الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم، البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلّا أن الخطيب تارة يتأنق في الخطبة زيادة عن العادة، وطوراً يسرع وتارةً يُسِرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدرابزين صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإنّ مَن يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولعل سبب اتخاذ ذلك الموضع أنه ربما كثُر الزحام، فلا يجد القارىء موضعاً إلّا بالمزاحمة، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.

وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملأ السقاؤون منها قربهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقاؤون يُحملون القِرَب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقِلّتها بالقسطنطينية، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر، فبكثرة مع عدم الغطاء. ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود. ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة أيا صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارّها قِدَمٌ ولا هَرَم، جامع متين، وأصله كنيسة لقسطنطين، خربت واحترقت، فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراجَ مصر سبع عشرة سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة اسلامبول مسجداً أقصى، ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السلطان محمد الثاني

المدينة، دخل هذه الكنيسة راكباً على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عباد الصليب وصورهم، جعلها مسجداً يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيراً على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القبلة ٢٠/والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب القبلة خارجة من الحائط وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقاً بالقبلة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبواسطة خابية كبيرة من رخام يستقى منها، وفيه كثير من العرب خَدَمَة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسة عميان وبصيراً يقرأون البُردة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلاّ أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، ويقول بعضهم:

مولاي صلِّ على مَن حلَّ في الحرم   محمد المصطفى المخصوص بالكرَم

بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائماً أبداً   على حبيبك خير الخلق كلهم

وهذا حسن لعدم إفراد الصلاة عن السلام المكروه عند البعض، ويقرأ الباقون بيتاً من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبة البنية عالية، ومناراتها أربع سامية، وقد اعتنى مولانا السلطان بتعمير هذا البناء، فجوزي خيراً على هذا الاعتناء: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله﴾.

لطيفة:

اعلم أن اسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتنبول، أو نحو ذلك، يعني بلد قسطنطين، فلما

أخذها المسلمون، قالوا: اسلامبول ـ أي بلد الإسلام ـ ولم تبق التسمية القديمة إلّا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ ٢١/من لسان الأروام، لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مراراً عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثال مصر «جاء من اصطنبول في علبة» أي حضري غير فلاح، يقولون ذلك هزواً، ويقولون أيضاً: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صاداً وقالوا: اصتنبولي، أو: استنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافــرت اجــريد ورحت ازمير واصتنبــول
رأيت ملاح شكــلهم في كل شيء مقبــول
ما عنـــدهم شي رزالـــة زي ما في مصـــر
علق على الـقـلب لكـن يلتـقـوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم أستنكـر من اسـلامبول إلّا قواويق[1] الأرمن التي هي كالبوش، وزي النساء في الأسواق، ومسألة الذوق لا حرج فيها، وكل حزب بما لديهم فرحون:

لا تعـــذل الإنســـان في شهـواتـه   في الناس من يلتذ طعم الحُصرم

وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي العربات، ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب اسـلامبول مَن لم يدرِها   وكـــذا المليحـــة عنـــد ذي عُنّـــة

---

(١) كلمة تركية معناها لباس الرأس.

ما ضارهـا إن كان بعض طريقهـا　　مثـل الـصـراط فإنّـهـا جَنّـة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذامّاً، وقد ركبت حصاناً مرة من غلطة، وتوجهت إلى اسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جداً، من رآها علم عرض الخليج لأنـه في المـرأى صغير، وذهبت إلى بالقلي ـ متنزه جميل ـ كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل الطريق خارج المدنية لينة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطر، ٢٢/وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي عمروها بإذن مولانا السلطان محمود عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيستهم لما نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيبوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بسلالم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركاً، وقد وجدت فيها جآذراً وظباء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم:

إنّ مَن يدخـل الكنيسـة يومـاً　　يلقَ فيهـا جآذراً وظـبـاء

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهَزِّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيهـا القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفـاق بجـانب سامـر الـرقص، سامراً في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، وجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفراً عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهمَ بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزقن»، وما رأيت أحداً بكى عليه ولا استعبر. وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عديت على قنطرة أخرى إلى

مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة[1]، سمي بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيّام السلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصاً سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحور وولدان، وذكرت بسيري هناك في السير ٢٣/في ريف مصر أيّام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جليلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السلطان محمود، وضعت علامة على غاية رمية السهام، لأنه كان فارساً رامياً، ولضلال الجهالات والأوهام راميا، أخضل الله ضريحه، وروح بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، وقد ذهبت عند الجي الدولة الروسية في غلطة[2]، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر منذ أعوام، وقرأ عليّ شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها، ولما رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعَوْد أحمد، ذهبت إلى إلجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانياً بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغرباء وناصر العلماء رئيس الديوان الأسنى والمداوي لعلل القلوب، والأسى مشير السر سينياوين، وبحسن عنايته، أتنعم في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلّا	ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتّجهَتْ ركابي	وضيفك حيث كنتَ من البلاد

---

(١) تقع وراء شيشلي، كانت منتزه استانبول.

(٢) أي سفير الدولة الروسية ELCI .

ثم فارقت اسلامبول، وفيَّ على فراقها أسف الثكلى، ونزلت مع الترجمان المذكور في وابور روسي ۲۳ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني ٢٤/مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك دره لطيفة البيوت والأشجار. ولم أجد الماء أبداً، وصرت أجري على ظهر الوابور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في اسلامبول:

أهيف من الترك خلّى القلب في تفتيت
لمّن رأى الحب من عيني عمل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي كيت
من خجلتي فت له استانبول أنا وجريت

وكان الهواء طيباً، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبدو لنا قمر ... فنحن بين السماء والبحر في نُور

وقلت:

البحر أسود والسما زرقاءُ ... لكنَّ فيه سفرتي بيضاء
أنا آنس من طيب وقتي راقص ... ومطيتي طنانة وغناء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها ... لكنني طرِبٌ فذاك غناء
ببخارها تعدو على أمثالها ... إن صحّ أو إنَ لم يصحّ هواء
وتنِق في البحر العميق كضفدع ... وتخافها حيّاته والماء
فالماء منها قد تغيّر لونه ... وعلاه نوحٌ مقلق وبكاء
هل نارها نار الجحيم أما ترى ... تلك المياه ومالها إطفاء
في بطنها قيظ وفي ظهر ربيع ... أو خريف تارة وشتاء
وركبتها فوق الأُجاج وقبلُ ما ... للنفس جارية حلت سوداء

فكـأنـهـا عربـية تجـري على | عجـلٍ ولـكـن خيلهـا سحـراء
عامـودهـا قذف الـدخـان كأنـه | بركـان نار عمّـهـا الإذكـاء
أو مثل سعلاة أطار الريح في الجـ | ـو الـشـعـور ورأسهـا شمـطاء
وتخـال مروحـة الهـواء كأنهـا | رقـاصـة لكـنـهـا صمـاء
٢٥/أعجـوبـة في شكلها فاقت فقُلْ | في وصـفـهـا ما تشـتهي وتشـاء
هي خان زاد أو حصـان مسـافـر | أو مركـب للسـير أو رمـضـاء
أو معمـل الحـداد أو هي نزهـة | أو بيت سكـنـى جادَهُ الـبـنّـاءُ

ثم اتفق الإرسـاء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعاً وخمسين ساعة، وعند رجوعي كانت مدة السفر تسعٍ وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون أنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوابور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر نظرنا فيه حكيم، وأُمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، وذلك بعدما نظرونا ونظروا تذاكرنا مع القبطان، ثم ذهبنا إلى الكرنتينة مع أمتعتنا، فأمّا نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الـوقت حصـل لي خجـل عظيم، وأبيْت أوّلاً كعنيزة مع امـرؤ القيس، يوم دارة جلجل، ثم أخذنا ثياباً نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تترى، وطاقية، وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك:

ويوم أودسـا جردونـي بدلـتـي | فصـرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتـي
لبسـت ثيابـاً غيرهـا فكـأنـني | صغـير تبـدّى في قمـاطٍ ولـفـةِ

ثم ذهبنا إلى المحل المُعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمـة البنـاء، وحيطانهـا بالـورق المنقوش، وأُعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب

الشخص شيئاً أُحضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلاّ أنّ ماءها ثقيل الطعم كما قلت: ٢٦/

ولله يومٌ أودسا وطودها نطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها ولكن طعم الماء ليس به حُسْن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من الصهاريج المملوءة من المطر والعيون البعيدة بنحو ست فرست ـ يعني فرسخ ـ روسي كما يأتي بيانه، وسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائماً ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعتنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة مبخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قِسْمٌ لمن ألمّ به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره. وهناك المروج، فكنا نتفسح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول لأنها جديدة غير شاقة، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصاً من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأمّا أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة الحلف بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخروا الثياب وردوها لها (لنا). ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جداً من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عن الروس، فيُحلّفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أميناً للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد ٢٧/ القيصر

يحلفون عند بلوغهم الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي الروس في ظهور الطاعون أيام كترين الثانية سنة ١٧٧١م قال: «هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك إلى الملية المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغداد وبلاد الافلاق». ومع وجود الكرنتينات التي رتبت في الروسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشهر دبروا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترست الأخطاط الجنوبية الغربية من الروسيا، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القرى الوبائية. ولهذا أخذت المملكة أوّلاً في عمل الوسائط التي توقف هذا الحادث وتقمعه، فانتخبت ابعاد سليم العيال من مربعها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعطى لهم من الشبابيك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط، وعلى تقدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته، وهذه الواسطة كان معمولاً بها في المدن فقط، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عن عدم تصديقهم بنفع هذه الواسطة انصب الطاعون كالسيل المهلك في الروسيا متقوتاً بألوف من القرابين، ومنتقلاً من محل للآخر وقبله الأخبار المهولة التي أيست الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقترنين عن قريب قوّما معيشة الروس تحت حكم كترين الأخيرة، وفي الآخر أسوار موسقو ما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت، ففيها كان ظفر الموت الساكن ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية». وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسقوب، ٢٨/بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة والامتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب انه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيباً للمسافرين في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذلك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقلّ أن

تنفك إلّا في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل لسان بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي والنيمساوي والإيطالياني، فلذلك فرض عندهم في التربية خصوصاً لبناتهم. وهواؤها معتدل في الغالب، ولكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة البضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلّا ثلاث مرات مدة الكرنتينة، ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة مير الخليج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا كلما بعد الإنسان جهة الشمال كما تذكر في أيام بتربورغ وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب فيها، إنها تُعد من العمر كما قلت:

وأيام على أيام مصر	تطول وغينها عنّا مُحجّب
٢٩/ولست أرى بها عيباً سوى أن	تعد عليّ من عمري وتُحسب

واستمريت على تعلّم لسان الروسيا مع صاحبي، وحفظت بيتين بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتها:

الوداع الوداع ثم وداعاً	يا بلادي وعزتي الأقربينا
يا بلاداً من أسعد الأرض فيها	أنا قضّيت بالمسرة حينا

ثم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظَرَنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر ليمتحنوها، وهكذا يفعلون في كل الكتب والجرنالات الواصلة في الروسيا، لا بد من عرضها على محك البحث، ومنع ما لا يناسب منها، ولهذا ترى في الجرنالات بعض عبارات ممحوة بالسكين، ثم بعد ذلك أخذت الكتب، وسكنت في موضع معد

للغـرباء متسع نيّر، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جداً، دائماً يسمع قعقعة العربيات ليلاً ونهاراً، وفيها منتزه على البحر يسمى «البـولـوار» وهـو أربعـة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسح خصوصاً في العصارى، وخصوصاً في اليوم الذي يلعب فيه بالموسيقى مثل يوم الأحد، وفيه دكك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب الناس وتجلس هناك على السلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح:

وطـابَ ليَ الـنـسـيم فَرَقَّ حتَّى   كأنّـي قد شكـوتُ إلـيه ما بي

فجلست هناك أنظر للبحر الأسود، وكان هادياً، وإلى القمر وهو ٣٠/كحسناء تارةً تحت برقع السحاب، وتارة يلوح بادياً:

والبـدر مثـل جميلة تاهت على   عشّـاقـهـا فتـرقبـوا الميعـادا
فيروح طوراً تحـت سُحب براقـع   ويلوح طوراً حبّـذا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولوار صورة رشيليي حاكم أودسا السالف، مادّاً يده إلى البحر، وواقفاً على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنّه منشؤها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئاً عظيماً خارجاً عن العادة. وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما يأتي، فلِمَ لا نعمل آثاراً لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟ وليس لازماً في الأثر صورة حتى يقال إنها محرّمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبـالجملة فعلمُ التصوير علمٌ نفيس يحكي لكَ الأجيال، ويريك أباك وأُمّك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلِمَ لا نشتغل به لتشحيذ القـرائـح القـريحـة، وتعليل النفـوس الجريحة، مع الخروج على الحرمة، إمّا بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؟ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على التعلّم شيء آخر كما قيل:

تعلَّمِ السحرَ ولا تعمَلْ به العلم بالشيء ولا الجهلُ بهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما نصه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير». فكتبت إليه: إني ما كتبت شيئاً من شأن الصور لأنّي رأيتها في مصر. وأحدثَت ٣١/أوّل مرة تعجّبي واستغرابي حتّى قلت:

وصورة حُسْنٍ قاتلَ الله مَن غدا يصوّرها ما باله كيف يفعل
كَلِفْتُ بِفيها إذْ بدَت غير أنني إذا رُمْتُ تقبيلاً فماذا أُقَبِّلُ

وقلت أيضاً:

وصورة حسنٍ أبدع الدهرُ شكلها إلى أن تعدّى طورها لبَّ جاهل
توهّمَها من عيّه آدميّةً ولكنها قد أوتيت عيّ ناقلِ
فنهنهتهم فاستبدلوا الغيّ بالهدى فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائلِ
فقولهم زور شبيه بصادق وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليّ: إنّه انسرّ من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنساناً عشق تمثال العذراء عِشقاً حقيقياً حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة، معدن هذا الفن التي رنّ فوقانها وطن، وفي آخر البولواربيت الأمير فرانسوف حاكم أودسا ـ وما صاقبها، وما قرب منها مثل بلاد القرم إذ ذاك، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبِشْر، وفرّجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكالٌ منّوعةٌ تلهي نفوس الأناسي عن أمانيها
على وفاق الهوا فوق القباب بدَت فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع فأخبرته، وهو محبب في هذه المدينة، كأنّه أبٌ للناس، مجتهد في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عيّنه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لمّا رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

٣٢/وفي وسط المدينة جنينة كجنينة روشتق بمصر، إلاّ أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت موسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس أُخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقداراً معلوماً كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني، وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالامرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد الطبيعي كما في غريفين بورج من بلاد النيمسا، وهناك يتداوى تقريباً من جميع الأمراض بلا عقاقير. وفي خارج المدينة حديقة كبيرة، تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فراراً من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيّام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية. وأمّا في بتربورغ، فلكثرة الأبنية خارج المدينة غالب النواحي حارّة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، وفي خارج المدينة أيضاً مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والخياطة والنسيج، ونحو ذلك. وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ٣٣/مديرتها بالبشاشة، وفرّجتني على جميع أوض الدروس وأوض الطعام وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث أن نساء

الأورويبين وبنـاتهم يحضـرن المجـالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذِّبةً أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدباً في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصـر، إنما هي مخازن ودكاكين منظمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجـار، في غاية اللطف فهـذه التسمية مجـازية، فتـذهب النـاس هنـاك في العصـارى، ويتحلون ويتبـردون، إذ هنـاك الحـلاوات والمبـردات ونحو ذلك. وبالجملة فمنتزهات أودسا تشرح الصدر والفؤاد وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشىء عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثرين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحدق النظر بي خصوصاً النساء، لأن لباسي عربي بالكُلِّية، خصوصاً لما كنت أركب العربة، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر، والخيل باسـلامبول، وقلَّ مَنْ يركب الخيل، فعمّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيل، وأمّـا عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأمّا الحمير فإنّي رأيت بها أتاناً تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر، ولم أجد هناك مَن يتكلم بالعربية أوّلاً كما قلت:

إنْ جُزتَ مملكـة الفرنج تجد بها	ما تشـتـهـيه الـنفس من أُمـنـيّه
٣٤/لكنمـا العـربيُّ في طرقـاتهـا	مُستَـغـربٌ يبكي على العـربيّه

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلقَ فرداً عارفـاً بلسـانـه	أبـداً ولا هو عارف الـروسـيّه
هو ساكتٌ إذْ لم يجـد عربـاً بهـا	لكـنـه متـكـلِّمٌ بالـنـيه

ثم بعد ذلك رأيت بعض فرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقد كلمتني بنتهم في وسط البولوار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية ـ على عادة

نساء مصر ـ فقلت حينئذ :

أمــرضــتـنـي عيونـهــا	وهــي إن تَبْــغِ شافـيَه
مع هذا لســانـهــا	قال لي اقعــد بعــافيه

وقلت أيضاً :

فتـاة من الافـرنـج تنطق بالعرب	فتــطربني ألفـاظهـا غاية الـطرب
لبــاقــة ألـفــاظ وسحــر لواحظٍ	وثغرٍ كنظم الدُّر أحلى مِن الضَّرب
تربَّت بمـصــر بلدتـي ولـقيتهــا	غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
وقـالت بلطف بعـد طول تحدّث	بعـافية اقعـد سليمـاً من العـطب
فقلت لهــا إني فديتــك راحـــل	غداً وفؤادي قاعـد عنـد من أُحبّ

وصادفت في منتزه أودسا فتاة افرنجية ببرنس عربي ، فذكرت بلادي التي فيها أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون :

كان عيشــي بهــا عزيزاً فلا غَرْ	وَ لعــينــي تبـكـي بمــاءٍ مهـين

وقلت :

في أودسـا بدت حسـان الغـواني	يتبـخـتــرن في ثياب الـجمــال
وأرى بينــهــن فوق فتــاة	برنســاً من ثياب عرب الـرجــال
أتــراهــا بذلــك الـلبس ترمـي	لســلامــي بغــاية الآجــال
٣٥/فيهــا قد نسيت وحشــة بُعـدي	وكــأنّــي بذاك بين الأهــالــي
أذكــرتــني بمـصــر كل رشيق	يزدري لحـظه بعــين الـغــزال
ونـضـتــه من بعــدمــا عَلِمـتـني	عاشـقــاً والهــوى قرين الـدلال
ظلم الـردف خصـرهـا مثل ما قد	ظلمــتــني ولـم تَجُـد بوصــال
سجــنــتــه بين الـنـطاق أسيراً	مثــل أســرى لقــدِّهــا الـميّالِ
هو بعض منـهــا ومــا رحـمـتــه	كيف يرجــو الغـريب رحمـة قَالِ

وأنـا ميت بحـية صدغـيهـا　　م سليم لكـن بغـير قتـال
ليس إلّا الـلحـاظ في وسط البلـ　　وار يسـطو على الـنهي بالنـزال
وعـيونـي تنـزهـت فجـنـت للـ　　ـقـلب حتـفـاً أمـضّـه بالنكـال
آه من عينـهـا وعـينـي وآهٍ　　من جفـاهـا وصدهـا المتـوالِ
يا أودسـا رفـقـاً بطَلٍّ غريب　　واستـرى كل طفلةٍ في الحجـال

وقلت أيضاً:

تبـرنست في أودسـا غادةٌ حسنـة　　من الفـرنج نفت عني الكرا وسنَه
فهـل تشير إلى أنسي ببـرنسهـا　　وانهـا مع مثلي تفعـل الحسنـه

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطالياني كتياتر مصر، إلّا أن البنية شاهقة، ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها السلطان محمد، وأظهروا اللاعبين بعمائم كالمسلمين وصوّروا إحراقه البلاد، وحين خرجت وجدت المطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم يكن هناك متعمم غيري إلّا اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم وأحوالهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغني طرب، يقول لسان حاله:

يا مغـرقـاً في أدب الـدُّرس　　أفـضـل منـه أدب الـنـفس

٣٦/والثانية أظهروا فيها متدلهة من العِشق وعاشقها، ولا شك أن هذا يكشط عن القلب جلد الخشـونـة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء الله: في الدنيا ظاهره غِرّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

ليس شيء إلّا وفـيه إذا ما　　صادفتـه عين الـلبيب اعـتبـار

وفيه خانات مُعَدّة للطعام ومع غاية الإحكام في البناء والنظافة وعندهم قائمة بما يوجد من أصناف المأكولات فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن جماعة

يذهبون معاً للأكل، وكل ما يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه المواضع نساء حسان يضربن بالقانون فلقد أشغلني حسن صورتهن عن حسن صوتهن، وتذكرت قولي سابقاً:

ليتني للسماع ما كنت أشتا ق ولا كنت مولعاً بالمِلاح
إنّ عيشي يمرّ في اللهو والحز ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل مَن أعطاها شيئاً سلمت عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الانحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صورة من يضرب على القانون في مصر من عجائز الرجال.

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إمّا من الاتفاق على كلمة أو استعمال اللفظة الفرنساوية وتعريبها، والروس دائماً يستعملون كلمات فرنساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغريبة ألطف، وهذا كما تستعمل الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأمّا ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب؛
أوّلاً: هذه الكلمة للسلاطين والباشوات والأمراء. ثانياً: عمل التمني باليد، والريفيرانس بالرّجل وبينهما بَوْن بعيد.

٣٧/وقلت مخاطباً لبعض أحبائي بمصر وأنا في أودسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا ر وما في الوصال قطع مرسا

«تورية بشهر مارس الافرنجي»

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى فوق قيس عشقاً وضعفاً ونكسا
ثم أضحى الهوا لديه حميداً فتراه في دولة الترك أمسى

عاش فيهــا فوق الخليج زمــانــاً في الــتــذاذ ما فيه صادف بوســا
ثم أجــلاه دهــره وهــو خصــم عنــد مُشْــوَد بحــر شدة فتحسى
ويرى الــبــحــر كالــسمــاء ولا أر ض يراهــا أفي السمـوات وأمسى
ثم طاب الهواء وأحسن لي الدهـ ـر فأرســيت عنــد سيف أودســا
بلد تلتــقــي إذا كنــت فيه منــزلاً واسعــاً وخصبــاً وأنســا
فيه تمشي الـولـدان والحـور زهواً في جنــان النعيم صبحــاً وأمسـا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن. ولمـا رجعت إلى أودسـا وجدتها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في ازدياد، إلاّ أني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب مناب الأمير فرانسوف، تلقاني أيضاً بغاية البشر، فقلت:

لِمَ لا تقــتــدي أودســا بأهــليـ ـك فتــلقــينــني بأحــسـن بِشْــر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا الروسيا إلى أقسام: الروسيا الصغيرة، والروسيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى روسيا ممالك أُخر دانت لها، وانقادت كمملكة اللين والفينلاند والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

٣٨/ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ أيار في عربة اشتريناها ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أوّلاً، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص ثم ختموها وأرسلوا خفيراً معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذاهب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أوّل محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلاّ إذا رأوا ورقـة مسمـاة البيدروجين، أو تذكـرة المرور، لكن إذا لم يكن بدروجين لا

يلجـأون إلى إعـطاء الخيل، ويأخذون مهما أرادوا من الكراء، ومع البيدروجين يلجأون إلى إعطاء الخيل بالثمن المقدر، وتلك الورقة منشنة وعليها نشان القيصر، فبغير ورقـة لا يمكن السفـر، فهي كالحـارس للإنسـان، وذلك أن تعطي الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصـل بعض شيء يكـون التفتيش سهلاً، وهذا البيدروجين تارة يشترى، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها، هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجـج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق إثبات الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، والقسم، وغير ذلك لا تكتب إلاّ في ورق منش بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأوّل ما دخل ذلك في الروسيا ٢٣ كانون ١٦٩٩م بأمر القيصر بطرس الكبير، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين ٣٩/في أيام بطرس، وبقي الأخير على حاله زماناً طويلاً، وأمّا الآن فارتفع الثمن جداً، فمن سنة ١٨٤٠م إلى هذا الوقت ثمن النوع الأول ١٥ كبيك فضة ٣٠ ثم ٦٠ ثم ٩٠، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، الأول ٩٠ لما قيمته من ١٥١ ربل إلى ٣٠٠ ربل فضة، والثاني ربل وثمانون فضة، لما قيمته من ٣٠١ ربل فضة إلى ٩٠٠ ربل فضة، وهكذا إلى الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠,٠٠١ فصـاعداً، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصـد ذكـر أنموذج من كل شيء. فأعطينا البيدروجين وأُعطي لنا خيل بالأجرة المقررة لكل فرست كبيك ونصف أو أكثر بحسب المواضع، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفـرست يعني فرسـخ، والفرست الروسي خمس ماية سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنـازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست

عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المنزلة، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عموداً مبنياً من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب جيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه الغاية نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول. وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزلة الأخرى، فكنا نغير الخيل في كل منزلة، فتارة نأخذ أربعة وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والصحو ٤٠/ والغيم سيان، فلا مانع أبداً ولا خوف في هذه الطرق التي هي صحارى بلا أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأةوحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين هذه السنة إلى بتربورغ أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق، ففتش عليها وأُرسلت له في بتربورغ. والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت حقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دفينا، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار. وودت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذاً في تلك الغيطان والأشجار التي تنقطع حتى قلت:

أبصرت إذ جزت على الروسيا ... أشجارها بالحسن مغبوطة
تدمشقت من حسن جناتها ... على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحريري أبصر الروسيا لقال فيها جنة الدنيا
أو عدّها أوّل جناتها لكنه لم يحظ بالرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنّها ٤١/سفين بر الفرنج كما أن الإبل سفين بر العرب كما قلت:

وألذ المركوب ما معه يسهل إذ ما تروم الرقاد

وقلت كذلك:

عربية العربي جرّ ته إلى تلك البلاد
فيها مشاربه صفت وبها أُتيح له المراد

وكلما مررنا يسلم علينا الناس برفع البرانيط، وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أوّل السفر، فقلت:

فرحت بمقدمي البلاد وأهلها رفعوا برانطهم لأجل سلامي
حتى السما حيّت ببرقٍ ضاحك والأرض رشّت ساعةً قُدّامي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته في الواقع، كقول آخر:

وما نزل القطر إلّا لكي يُقَبِّل بين يديك الثرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرق ليست إلا التحية والإكرام والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهار كثيرة أوّلها نهر بوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر بحبل كمعديّة أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور. قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت

اللطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان وأقول: ليس في نواحي بتر بورغ مثل هذا المحل في طيب الهواء وحسن الموضع. وهناك انسلخ منا جلد تلك العجلة الحديد، فأعطيناها الحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانياً في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهلة ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان ٤٢/.

ثم وصلنا كييف Keiv يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندره، وهذه المدينة كانت كرسي مملكة الروسيا أوّلاً وعليها آثار القِدَم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير من جثث قسسهم المقدسين يزورونهم في الكنائس، ولهذا كثيراً ما يحجون إليها كما إلى بيت المقدس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أيا صوفية وقد طلعت على كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر Dnieper، وهو من أنهار الروسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف Mogilev، وحولها غابات كثيرة ترى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النّظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

لا تعجبوا إنْ كان أهل الروسيا ... أُسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة ... فلدى بلاد الروسيا جنّات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعة حول القلعة إظهاراً لقوتهم، وإشعاراً بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك:

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها ... قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع ... أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعاً وهي قائلة ... هذا جزاء الذي قد راغ من قلبي

ولما رأتني أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

٤٣/مـذ أرسلت ديوثهـا لي عفتها ... خجـلاً وقـلبي بالـعيان قنـوع
وأبيت حسن وصـالها مع حبها ... إن الـمحبـة بالـوصـال تضيع

فكأن قلبي سلك طريق سليك بن السليكة القائل:

يعـاف وصـال ذات البـذل قلبي ... ويتّـبـع الـمـمـنـعـة الـنـوارا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيدها فقلت:

صادف فؤادي عنـد كيف رشيقة ... سحـرتـه بالنفثـات من شفتيهـا
قد سرت عنهـا وهـو باقٍ عنـدهـا ... بث الهـوى الإيمـاءُ من عينيهـا
دجت على أثـر الـدجاج وحلقت ... نحـو الأمـام برفـعهـا ليديهـا
فكـأنّ ذا منـهـا عنـاق مودّع ... لمـا رأت أنـي أمـيل إلـيهـا

ودائمـاً تسمع في كييف دق الأجراس، وكذلك سائر البلاد، فإنها مشحونة بالكنائس خصوصاً المدن، وقلت مكتفياً:

وسـامـرتـهـا والـليل مُرْخٍ ذيولـه ... علينـا كأنّـا قاضيان على الـهـوى
ومـذ سمعت صوت النواقيس هرولت ... تصلي فراعت مهجتي ضربـة النـوى

النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد، ولا يحسن الاكتفاء إلاّ إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكـوت للمحبـوب نيران الجـوى ... بكـبـدي فمـاس تيهـاً وقـلا
وقـال لي أنـت الـخـليل لي فلم ... لا أصـبـحـت عليك برداً وسـلا

فإن سلا إمّا مختصر من سلاماً أو فعل من السلو، وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري:

مذ قام يضـــرب بالنـــاقـوس قلت له   مَنْ عَلّم الـظبي ضربــاً بالنـــواقيس
وقـلـت للعـيـن أيّ الضّـــرب يؤلمكي   ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخـذة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقّه أن ينسبه ٤٤/ للقلب، وكأنه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن الطماح أو بردها سروراً، وهذا ناشيء عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشيء عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشيء عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي العين، فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، فاقتسام الحظ مع القلب وبكائها برداً للسرور وحاراً للحزن، فسبحان اللطيف الخبير، وأيضاً فلا يحسن الذوق الأدبي إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضاً فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم من حيث انه بسبب الفراق، كما فعلتُ في شِعري. وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة انه كان معلقاً في نوفغورد (Novgord)، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سآمة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانياً، لكن بصرف ألوف الرُبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهـذا يميل لونـه إلى البياض الفضي ويلمـع، والفـلاحون يزورونه في الأعياد ويعـظمـونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويُصَلّبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدماً وأربعة ٤٥/ أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدماً وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعاً،

ووزنه أربعمائة وثلاثة وأربعون ألف وسبعمائة وسبعون رطلاً، وقيمته ستة وستون ألفاً وخمسماية وستون ليفر ستيرلانسك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم، وأثر عظيم يبلى الـدهر ولا يبلى. وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية نواقيس يوحنا الكبيرة التي أعظمها أربعة آلاف بود، لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتاً رناناً. وفي كييف (Kiev) مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني في ظاهرها، فكيف من باطنها ع تعني مثال «الغصين هذا فأين الظل والثمر». وفيها مواضع كثيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلو مع ستر أغصانها لطرق الحائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الـريف، وكـل السقـوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، وحكمة ذلك سهولة انحدار الأمطار والثلوج، ثم خرجنا من كييف يوم الاثنين ٢٧ أيار من باب آخر مقبب، وهناك عدة قنوات تمر السايلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معـدية كبيرة، وكـذلـك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة تضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرىء القيس:

فلمـا أجـزنا ساحة الحي وانتحى   بنـا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبة بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفـلاحين يحرثون الأراضي، كما في مصر، إلّا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول (Garbul)، وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت فتاة

ظريفة الشكل في بعض المحطات، فصارت تنظر إليّ وصرت أنظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت:

هيفاء من شباكها قد رنت — نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيءٍ راقني أنها — تحب أن أُحدق فيها النظر
رُمّان نهديها بدا نصفه — والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعذارى مصر يخفين من — حسن المحيا غير غُنج الحور
أبدت ثنايا بعقيق اللما — قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حبّها برهة — حتى برؤياها نعمت المطر

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس **٣٠** أيار، وبهذا وضعنا عصا التسيار، وأقمنا بها مدة **٢٣** يوماً:

دخلنا على أن المقام ثلاثة — فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها دينيبر Dnieper ، وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يوماً حسناً، لأن التلامذة كانوا يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على المغناطيس وجذبه، فذكرت قول الشاعر:

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا — فحيثما درت دارت نحوك الصور

٤٧/وقلت:

ما حيلتي في حب غانيةٍ — قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا — لا غرو أن قلبي الحديد صَبا

وذهبت يوماً آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي تحت سقيفة لطيفة تقي من المطر، وكان معنا حسان فقلت:

مضى زمنٌ في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند عين تدفقت فلله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تثنية العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله:

جاد بالعين حين أعمى هواه عينه فانثنى بلا عينين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضَرّابي الطوب خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليّناً كما في مصر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظّام إذا كان المطر، وهي مثل قرا «ميدان» في مصر. وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضياع ليلتين، ووصلنا إلى بودن، ورأينا عندها عيناً تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض، وقد وضعت فيها عصاً كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار ومبني عليها حاصل صغير. فلله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين، ويسهل فيه إنفاق العين كثرة العيون، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جداً، فطأطأت رأسي لكي يسهل عليّ به التجديف، وقد استحوذ عليّ شيطان البق في إحدى ٤٨ / الليلتين، فبت بليلةٍ نابغية. ورأيت معمل القطران، وشجر البندق، وغير ذلك من أنواع الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس، ورأيت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلاّ في الشمس، فلذلك تقل الفواكه في تلك الديار مع كثرة أشجارها، فليست كمصر، فإنها كثيرة الثمار جداً من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشوفي وبلح أحمر وأخضر وأصفر. . إلخ وقثاء، وخيار وقاون وتفاح وموز وبرتقال وقصب السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالمولوخيا والباميا والقلقاس، وذلك لا يوجد في هذه البلاد غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جداً، فلذلك قلت:

لله مصر وحسن تربتها ونيلها بل رياضها النضره
إن كانت الروسيا نمت شجرا فإن أشجارها بلا ثمره

إلّا أن الفواكه تحفظ كثيراً في هذه البلاد، فالعنب لا ينقطع أبداً من بتر بورغ، والبرتقال يمكث فيها غالب السنة، وفي موهلوف رأيت كثيراً من البنات الصغار يلعبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويت افرنجية طفلة تبرقعت بالحسن والدلِ
تلعب بالقانون حيناً كما تلعب بالقانون في وصلي

وقلت:

بعدما أطربت بشدو لحون رقصت مرة على القانون
وتثنت في رقصها وتهادت فتبدلت حشمتي بالمجون

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضاً يلعبن ويرقصن من غير ٤٩/نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلّا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغِيرَة، ويعدون ذلك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة، ودائماً محادثتهم مصونة عن غير الأدب، إلّا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد استحممت فيه وحدي، لأني كنت عند صاحبه فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معاً، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيباً عندهم كشف العورة في الحمامات، وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات مصر واسلامبول المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطال مملوءة ماءً بارداً وحاراً وصابوناً وأغصان أشجار صغيرة يضربون بها أنفسهم، وهذا نموذج لحمامات بتر بورغ إلّا أن فيها حوضاً كبيراً مملوءاً ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلّا أنهم لا يكيسون، وبالجملة

ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أُوض من خشب، أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ودّعونا، فكان ذلك الوقت مشبهاً لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

لله أيّامٌ تقضّـت بالصفا في موهلوف	
كم مِنْ حِسانٍ أبصرَت عيني وكم خِلٍّ ألوف	
٥٠/ لا تنكروا زرق العيو	ن فهكذا نصل السيوف

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى اسكندرية، وقد استحوذت شياطين الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفاءها، وقلت ملوحاً بقصة إسكندر ذي القرنين:

ولما بدت اسكندرية سحرة	رأيت بها نار الحريقة لا تهدا
فهل خوف ياجوج ومأجوج قد أتى	هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبل الوصول إليها بدا اللهيب، فكنا نظن أنه شفق. فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك حيث قال:

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمَّ أوّلها	وبت آخرها أستجذب الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية	مد الظلام على أرواقها طنبا
يهدي إليها مجاج الحمر ساكنها	فكلما دبَّ فيه أثمرت لهبا
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها	عاد الزمرد من عيدانها ذهبا

ثم مررنا على فينسيك VENESK، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من اليهود

مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها بقليل تَقلّ اليهود، فلا يُرى إلاّ محض الروس خصوصاً في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. وبها كثير من الكنائس، وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار، ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت صحو كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر. ثم في يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الآفاق، وذلك عند القرب من بتر بورغ فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتك بالبـ	ـشرٌ وتلقينني بوجهٍ عبوس
٥١/أنتِ غضبى عليّ أم ذاك تيهٌ	ودلالٌ والتيه شأن العروس

ثم بعد برهة بسمت الشمس بالإشراق فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتها	بنت السرور يضمها ابن سحاب
خافت وذا ماء البكاء وقبلها	خافتني الأبكار لاستغرابي
أو أنها استحيت وذا عرق الحيا	والبكر يخجلها لقا الأغراب
ما زلت أخدعها بلين مقالتي	حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ تسارسكيا سلو[1]، مسكن العائلة الامبراطورية في الصيف، وفيها بستان كبير محفوف بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطرين من الأشجار كما في غالب الطرق، فأذكرني ذلك طريق شبرا بقرب القاهرة، إلاّ أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربات، وهناك أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفاً وشتاء، إلاّ أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجاً للتفسح هناك والتفرج على ما هناك من

(١) أي قرية القيصر، وهي قرية صغيرة.

العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة، وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالألماس أهداهما السلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل والفيلة، وللأغنام الغريبة، وسائر الحيوانات الغريبة الشكل. ثم من تسارسكياسلو تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي ـ منتزه جميل فيه بستان كبير ـ وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطىء تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الريحان. ثم مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلّا بعد مع جناب ٥٢/سفير جوقند العالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفاويق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، ورأينا النظارات المكبرة التي تُرى بها النجوم، ورأينا بالنظارة من هناك هلال كنيسة إسحاق مع بعد المسافة، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتر بورغ من ذوي الفضل والأدب إلّا هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاذبنا كما قال الحريري أطراف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد؛ فوجدته تعْلمة نقّاداً، وأَلِفْتُه روحاً لجسم الأدب، ولا بِدَع أن سُمّي لذلك فؤادا. وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوى كطي الزابور، فتمثلت بقول الشاعر:

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولة كأنها لابسة نعلاً، فما ألطف مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولة، فيعسر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرحٍ بالدمع أوّل عهد القلب بالجَلَدِ

الباب الأول

في منشأ الروس

الساكنون الأول في تلك الأراضي الواسعة التي تسكنها الروس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب، وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم لا يعرفون الله، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني **٥٣**/الصور المصنوعة، ولهذا يسمون الوثنيين، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخيطون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش. وفي الصيف يبنون أخصاصاً بدل البيوت، أو يستترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكناً مشابهاً لما يفعله الآن القلموق وسكان سيبير ويسمونه يورطة ـ أي دويرة المنتجعين ـ، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز بصيد، وتحرث الأرض، وتعيش دائماً في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد، ولذلك يسمون المنتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللان يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحراب الحادة، والسهام، ويعملون من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والمجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعاناً، لكن قاسين غالباً يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم قرباناً لأصنامهم.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم: كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي، هذا بسبب أنهم دائماً يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض، يعني الثلج، وكأنهم في الشتاء وينقلبون ذئاباً وضباباً بسبب أنهم يلبسون جلد الذئاب والضباب، وحين استأصلت الحروب سكيفي وصرماطي، ظهر محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس، يظنون أنهم جاؤوا من آسيا، ومع أنهم أيضاً لا يعرفون الله، ولا يعبدون الأصنام، ولم يكونوا قاسين هكذا، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيداً، وبعد عدة سنين ٥٤/يعتقونهم. وكانوا أيضاً شجعاناً يغيرون دائماً رَجَّالة، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر، ويهجمون على العدو بصياح مفرح، وبالموسيقى، وكانوا مشتغلين بالفلاحة إلّا قليلا، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة أبدان وقوة وجمال الخلقة، وكانوا مستقيمين طيبي القلوب، ولا يكتمون ما في باطنهم، ولا يحلفون أبداً، بل يقولون: «أنا أستحي إنْ لم أفِ بالعهد»، ودائماً يوفون بوعودهم، وإذا جاء المسافر في قراهم، كل واحد منهم يلاقيه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام، ويحميه عمن يتعرض له، ولما رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيادتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك، ومن هذا نشأت التجارة، وصار الصقلب أغنياء، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف، ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب، وفي وقت الحرب يحاربن بقرب أزواجهن لا يستهولن الموت، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم بحيث ان الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمروهم ببعض شيء، والشبان قط لا يدخلون في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم، ويتميزون بالتواضع

والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما. ٥٥/وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث انهم إذا تلاقوا مع الكبار دائماً يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون. والصقلب كانوا يحبون الرقص والموسيقى، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحاً بل يأخذ معه قيثاراً أو صفارة أو زمارة بالقربة أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة، وليس فقط في وقت الصلح، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينبسطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر.

أصل ولاية نوفغورد[1] Novgorod

أصل الصقلب نوفغورد؛ فربع غوستو ميصل روريك أوّل أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩.

الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم: صقلب دونا؛ وهم الساكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الأخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم ويخربون بيوتهم. وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسيف بعض ولايات الروم. وقيصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاؤوا في الروسيا في القرن السادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظتهم، ولما جمع جيوشاً عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب ويحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلاً عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين ٥٦/يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، وبحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهعم تخلصوا من الأسر أو الرق. والصقلب البلطيقيون كانوا أكثر تمدناً من الأخر، وبنوا مدناً منها نوفغورد الموضوعة قرب غدير

(١) انظر، قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١/١٧.

أيلمن ونهر فولخوف، ولهذا يسمون النوفغورديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر، فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية يحكمون الرئيس المسمى الأشنج، وفي العسكر فوجد أوقويفود يعني صاري عسكر، وكان الصقلب النوفغورديون زمناً طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاوريهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة وبليات عتيدة أضعفتهم في الآخر جداً حتى إنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر البلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانياً خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس. وجيرانهم اغتنموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الأسار. وبالسعادة كان في نوفغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستو ميصل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جداً، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين ويحميها من المجاورين الوحشيين ٥٧ / ، فحينئذ تحزب النوفغورديون أحزاباً منهم، ويس كريفيج، وأرسلوا رسلاً بنصيحة خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاثة إخوة من أصل واريغ، والروس يسمون روريك وسيناف. وتروفور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاؤوا ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب، وروريق ابتدأ بحكم نوفغورد وسيناف «بيلي اوزر» يعني البركة البيضاء، في شمال نوفغورد الشرقي مملكة ويس وتروفور أربورسك مدينة كريفيج في الجنوب الشمالي من نوفغورد في مملكة بسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسيا وأهلها سموا «الروس»، والصقلب تمتعوا ثانياً بالراحة والسعادة لأن جيرانهم ما بقوا

يجسرون أن يغيروا عليهم والبغاة والخارجون كانوا مقهورين، فذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جداً، وكان نقم على روريق عدم إباحة النهب والشقاق، تعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره، لكن الله عاقبه فقتل في الحرب، وعوقب أصحابه كلهم، وبعد مدة قليلة مات سيناف وترفور وورث ملكها روريق، وصار وحده ملك الروسيا الكبيرة، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون.

أصل ولاية كييف[1] Kiev

سكولد ودير، الحرب مع الأورام: قد ذكرنا أن روريق لما جاء، جاء معه جيش عظيم، وكان في عددهم سكولد ودير رئيسان من رؤساء العسكر، وهما مولعان بالحرب، فذات يوم لما اجتمعت ٥٨/الأصحاب ذهبا إلى روريق وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخرى، وهو خلّاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كانوا كلهم حربيين وأقوياء فذهبا حتى إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق، ولما وصلا إلى نهر دنيبير نهر كبير في داخل الروسيا على الجنوب، ويصب في البحر الأسود ـ رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا: لمن هي؟ فأجيبا: بأنها مدينة صقلبية بناها ثلاثة أخوة صيادون، وباسم الأكبر سميت كيا سميت كييف Keiv، وكل الأخوة الثلاثة ماتوا من مدة طويلة، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر، تدفع لهم الخراج حالاً، والخزر سكنوا أولاً نواحي بحر كيلان المسمى قديماً بالخزر الموجود بين الروسيا والفرس والتاتار المستقلين فحينئذ حكمها سكولد ودير ووعدا أن يحمياها من الخزر، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف Keiv، وركب الجميع من كييف على نهر دنيبير إلى البحر الأسود، وظهرا عند أسوار القسطنطينية تخت الروم، إذ ذاك وحاصراها، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال، والعسكر لم

---

(١) قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١/ ١٧.

يتجاسروا أن يحاربوهم واستهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتماً، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى «فوطي» أخذ صورة العذراء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وجثا هو والأعيان والعوام والعسكر على الركب وسألوا من العذراء الحماية، فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هدأ القلق، وسكن الضجر وبالبغتة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عساكر السفينة ٥٩/وغرقوا ورجع سكولد ودير بعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧م، لكن ما زال أكثرهم وثنياً إلى زمان فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في الروسيا سنة ٩٨٨م، والأسقف فوطي أرسل لهم قُسساً يعلمونهم الدين والقراءة والكتابة بحروف تهجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريك ومينوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختر لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضاً كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي: لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصرّ، وصار ذلك مثلاً. فلذلك ترى العوام يشربون كثيراً خصوصاً في الأعياد، وترى السكارى في الطريق وأيضاً المجاورة للأورام قوته اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلمو الروس الدين والعلوم، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل الروسيا، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ الروسيا الصغير لأوسترالوف.

الباب الثاني

في بتر بورغ

في بتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجلدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبنى بها وتمـر العربات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتر بورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تخت الروسيا، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيها يوماً فيوماً إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

الفصل الأول

/٦٠

اعلم أن بتر بورغ كلمة مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد، أو محلة، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة الروسيا المؤسسة في ١٧٠٣م، تشغـل جزءاً من إينغـرى القديمة، وجزءاً من كاريليا القديمة، يعني الفينلاند، موضوعة في ٦٥٩، ٥, ٣١ درجة من العرض الشمالي، وفي ٥٩, ٣٠ درجة من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى قسم النيفا في خور فينلاند، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحله. ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى

ناحية الشرق، في قبلي جبال دود بروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة مسطحاً مستديراً باعوجاج مجرى النيفا، وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتر بورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بمقدار ٨٥٤١م أو ٥٩٦٢٩ قدماً إنكليزياً، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عموماً دسمة ومهتزة، وتحت سطحها السبخي يوجد راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧م، وحاسبه القولونيل ترليتسكي، حسب أيضاً أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بقدر ٦٢١٨٤ على النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلّ بنواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عموماً ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت ٦١/أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيداً آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور محزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات تنجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ، وفي سنة ١٧٧٣م اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفانج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قيل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلّا بملح عادي قليل جداً، بحيث لا يحس به وأيضاً ماء النيفا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقى فيا وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالباً مكدراً ومحتوياً على بعض مواد مضرة بالصحة خصوصاً في الصيف، ففي مقابلة ذلك ماء النيفا في كل فصل شراب زلال

للسكان، عذب بارد شفاف، إلّا أنه للغرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيراً لذلك:

من قاس بالنيل نهر نيفا ولم يذق حلوه وعذبه
عندي عليه دليل ذوق هذا شراب وذاك شَرْبه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشيء من الخلجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ فرست، وسطحها ٦٢/نحو ١٨٠٠,٠٠٠ سجين مربعة، وطولها ٦ فرست من ركن حارة نارفا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير أسمولني، وعرضها ٨ فرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل النيفا الأيمن أمام جزيرة ابوتيكير أو جنينة الصيدلانية ونصف المدينة تقريباً محدق بالنيفا وخلجانه الأصلية، وربما محدق بمياه الخور، والباقي يطل على القرى والمدينة مكشوفة بحيث ترى من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها الشمالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائماً وخصوصاً من الشرق تبرد حارات بتر بورغ العريضة، وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتقعات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣,٠٩، والريح الغربي هو الغالب، والريح القبلي الغربي بسبب الغيوم والريح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، ولوحظ الطقس المتوسط في سنة ١٨٣١م، ٢٩٦، وأيام الغليني نادرة جداً، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١م، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦ مرات هبت على ٦ مرات من قبل و (١) من قبلي غربي و (١) مرة قبلي شرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١م كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة قبلي غربي، و (٢) مرة قبلي و (٥) مرة الشمالي الشرقي و (٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، وفي ١٧١٨م في مدة ١١٤ سنة ما

حصل إلاّ ٢٤ مرة، إنه تجلد. ٢٠ و ٣١ تشرين الأول، ومرة حصل في ١٨١١م، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلاّ ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣.إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦م، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيســان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدر منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلاّ ٦ مرات، والتحلل الأعـوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢م، ١٦ آذار، والعامة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصاً فيما يتعلق بقطرهم يحددون تاريخ تجلد النيفا، وتحلله بهذا المثل المضاعف «أليوم مار نقوله الماء يحبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مار نقوله صاحب الخوارق، ٦ كانون الأول، ويوم مار جورج ٢٣ نيسان، وعلى ما قلنا يعرف العادي أن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الجمد يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف فيها، فهل كان هنا أبو منصور قسيم بن إبراهيم الملقب ببزرجمهر حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع:

لقــد حال دون الـورد برد مطاول	كأن سُعــوداً غُيبــنَّ في منــاحس
وحجب في الثلج الـربيع وحسنـه	كما اكتن في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيفا، سكان الساحلين المتقابلين المغترقين غالباً عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغيّة والقلق على ساحل النهر كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جداً إلى ٨ كانون ٦٤/الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سبباً لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمام،

حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيفا للتجلد، وفي السنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجاً على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهـر النيفـا جليد تراكمت جنـادلـه ما بين مُرْغٍ ومـزبـدِ
فهـا هو يبكي رعـدة وترى الورى يقـولـون لا تهـلك أسىً وتجلَّد

وفي سنة ١٨٤٤م تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة نيسان ابتدأ، وفي صبحه عبروا، والعادة أن يوضع على النيفا ألواح كالقناطر ويثبتونها لأجل العبور، ثم إذا تقوّى أزالوها، وإذا زادت قوة الجليد مشوا بالعربات.

ولما رتب بطرس الأوّل منجرة المدينة نسب لها في ١٧٣٠م النظارة على كل أبنية بتر بورغ المخصوصة ونتج من هذا أن سلوك النيفا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقاً غير ما أمر به ٧ أيلول ١٨٣١ م، وذلك أن رئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمـام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بُنديرة المنجرة المـذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضاً أو غائباً، فناظر الأشغال المذكورة ينـوبه ٦٥/في زورق بمدفع بنديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام ورده، يذهب حاكم القلعة منها ببنديرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة ويخبرونه بإمكان العبور على النيفا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أوّلاً زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، وإن كان الزورق القيصري وزورق رئيس الدننمـا وزورق

وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقاة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة في القصر سلم بطلق ٧ مدافع ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصـر ويخبـرون القيصـر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والإخبار أن بإمكـانت العبور على النيفا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر بنديرات الزوارق تجذب أيضاً وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي سواحل النيفا المتخلص من غطائه البارد وطلق المدافع وشويشة النواتية التي تنزل في النهر، والزوارق التي لا تعد ولا تحصى، التي تمخر في النهر من كل طرف، يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة، وكم من تنظيمات فعلت على ساحل النيفا البديع مرة بعده وأي منظر وأي رونق، وأما في هذا الوقت فيذهب ٦٦/حاكم القلعة وحده في زورق ويأخذ معه حقة مملوءة من ماء النيفا إشارة إلى جواز الجواز وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدىء العبور، وأمّا تجلد النيفا فليس له رسم الآن، ولكن في أيّام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفاً على مرور واحد مسخرة من القصر يمر أوّلاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمـل راية من القمـاش، والأخر بأيديهم قوس وحبال وقواديم والشاطىء الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جداً بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدىء تثبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة، كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادي خشبي، وبعـد السـطر الأول من البيوت كانت العين تقضي بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنايع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلّا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر أيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة

في ۱۸۲٦م، حصل في بتر بورغ أمر نادر جداً، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح، لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغير، وكان الصرُّ ست درجات، لكن ما دام ذلك زماناً طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيفا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأوّل فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر ٦٧/التحليل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جداً حتى إنه في ليلة تنمو النباتات وحينئذ الأشجار تبدأ في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهو بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك في سنة ١٨٠٢م كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦ وفي ١٨١٢م كان ٢٧ درجة ٢، وكان في شهر تموز والزوابع والصواعق عموماً لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادراً فوق المدينة وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جداً، فهي لا ليل ولا نهار وإنما الدغيشة وتباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتـر بورغ بدائـع وعـجـائـب وغـرائـب
فالـصـبـح فجـر صادق والـليل فجـر كاذب
فكـأنـهـا بضـيائـهـا الـليل منـهـا هارب

والرياح في هذا الفصل في العادة ساكنة والهواء صاف خفيف شفاف حتى يمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و ٢٩ دقيقة، ويبقى ٥ ساعات و ٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الذي نعتناه آنفاً، وإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسراً، ومع ذلك فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول:

شهـــر الـــصـــيام مبـــارك ما لم يكـن في شهـــر آب
/٦٨ خفـت العــذاب فصمتــه فوقعت في نفس العــذاب

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعـات وربـع، لهـذا من أول شهـر أيار إلى أول شهـر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أوّل مرة إيقاد تلك الفوانيس أوّل آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال قلت:

لله ما أحـلى الـفـوانـيس الـتـي مصبــاحهــا يبـدو كشكـل هلال
لولا تعــددهــا لقــلـت أهـــلّة لكـــن أقــول إذن نجــوم ليالـــي

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلـك أول مرة ثم يتـركون. وفي هذه الأيام أوقدوا فانوساً كبيراً كالشمس لإضاءة الشـــارع الكبير، ولكن إلى الآن ما حصلت نتيجتهـا المقصـودة، وهي الإنـارة الكاملة، ولا يستغرب نحو ذلك، فقد رأيت مرة في التياتر تصوير البدر والليل فقلت مورّياً:

وفي بتـــر بورغ غال عقلي تياتـــر نهـاراً فأضحى من صنـاعتهم ليلا
وقـد أحسنـوا تصـوير بدر بسقفـه وما صور الرحمن في أرضه أعلى

وندر تبسم الخريف، بل هو دائماً عبوس مظلم محزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسمـاء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فأظن أن أوحالها تقصر عن أوحال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني فقال:

كيف المسير بنيسـابور في الطرق وبـيـنـنـــا أبحـــر تطمـــر من الليق
يا حبـذا البحـر ينجـو فيه صاحبه بالعـوم أو بركوب الفلك من غرق
ترش منـــه على أثـــوابنـــا لمـــع حتى يعـود جديد الثوب كالخَلِقِ

كأنّـمـا بطنـهـا فيهـا ويابسهـا ما اسوّد وابيضّ فوق الجلد من بهق

٦٩/وفي هذا الوقت، الهدوء مضر والحركة لازمة، والريح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغتة فيضان المياه التي في وسطها أُسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، حينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو ٢٢، وندر جداً أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠م كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول (١/٤ ٣١)، ومن ١٧٦٦م إلى سنة ١٧٧٠م وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هناك إنشاد قول أبي سعيد الآبي في وصف البرد:

في موضـع خفـيت به الـ أصـوات برداً في الـنـداء
فالـريق يجمـد في اللهـا والصـوت يجمد في الهواء
نطأ الـزجـاج من الـزجـا ج إذا مشـينـا في فضـاء
والـجـو يلمـع في نوا حيه ضريب كالـهـبـاء
وكـأنـمـا صقـلت به بيض الـسـيوف أو المـراء
جمـدت له الصهبـاء حتّـ ـى قد أتـتـك بلا أنـاءِ
فإذا أردت خرطت مصـك من رحـيقٍ أو طلاءِ
لو عاين الـعـذرى مشـوى قد رضـيت به نواء
أو حلّه ألـهـاه عن جر الـهـوى برد الـهـواء

وليس بلازم أن تقول أن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقدة دائماً، وكذلك البيوت، وقلة الأمطار في الشتاء بسبب الصر الكالح إنما هو الثلج الذي ينزل أوّل الشتـاء فيغـطي الأرض ويبيضهـا فيتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك، ٧٠/وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض:

كأنّ نيسان أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحُللِ
أو الغزالة في شمس الضحى خَرِفَت فما تفرق بين الجَدي والحَمَل

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطرِ».

ولا قول:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ مثل ما شحَّ بالحيا تموز

إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر:

والجو ما بين تسجال الغمام وتسجاع الحمام وتسجام الشآبيب
فمن هزارٍ على الأغصان مرتجز ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب

وقد لوحظ أنه عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:

وأسنمة السطوح السود حازت بياضاً حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذي لا محالةَ قد يشيب به الوليد

وقلت:

انظر لأسنمة السطو ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩م، وسنة ١٧٤٠م حين غطت الشتويات القاسية جداً جزائر خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلاً في فينيسيا إلى ٢، وفي فرانكفورت إلى ٣، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي فيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥

كانـون الثـاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠م ما بين ٢٦، ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد ٧١/المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلّا بعمق ثلاثة أقدام، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصباً للغاية، وفي كانون الثاني ١٧٤٠م بني على النيفا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٣ مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صب بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوط بحاجز جميل بدرابزين فيه باب كبير، وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصارى برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصـان الجـاثمـة عليهـا الـطيور مصنـوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزين ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك، و ٢ هاون عيار ٨٠ رطـلاً، و ٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القامة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفيء وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشـور المنحـوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة، وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة ويقضي العجب بصلابتها خصوصاً مدة الامتحانات ٧٢/المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة، والجلل أصابوا لوحاً من الخشب ثخنه قدمان موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل

بارود رموا البناء. وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدماً الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في فمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمائة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل تقضي بالعجب أيضاً بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك، وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضة بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الغندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهوناً بالنفط، وساعة أواني مختلفة وجزر صغيرة وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى وفيها فرش بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرش طاقيتان وزوجان من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، تولع قطع الجليلد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الجمد، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولاب مزين بصور ومملوء بأواني ٧٣/النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه. كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطقيم لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقل الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيران، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس واحد مسخرة من القصرة الملكي الذي غيّر دينه. ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته

بعض أيام، وكان مأذوناً لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، ولكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحد حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقي هذا البيت العجيب الساحر للب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم إلى سردابات الجليد التي في القصر، لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا، وتحمل إلى السرداب لتبريد المياه بجليد، والحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعاين لذلك الزمان كتاباً وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠م في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ ١٧٤١م. والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى ٧٤/النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣م في المنزل المجاور لقصر المرمر بنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئي من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور ١٧٤٠م، وقد بني في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠م أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلّا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، ومن دوس المارة على النيفا يكون عليه كالتراب ويصفر، وقلت في المفاخرة بينه وبين النيل:

هيّا انظروا ما أصاب نيفا حتى غدا أصفر الإهاب

الـــنـــيل ماء وذا تراب والمـــاء يعلو على التـراب

وقلت أيضاً:

إن قيل إن الـنـيل في المـ ـدبـه طين قذِر
فإن نيفـاكـمُ حكـى جمـوده الـشـب الـزفَـرُ
الـنــيل عذب سائـغ وذا كطود منـقـعـر

وأمّا فيضان ماء النيفا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغيير الهواء وعصف الريح، لكن في سنة ١٧٨٨م، وفي سنة ١٨٠٢م اشتهر ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لطوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤م كلا شيء، وكـان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الـريح بارداً جداً، يهب بشـدة عظيمـة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جداً، والسكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات ٧٥/السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والـليالـي من الـزمـان حبلى مثـقـلات يلدن كل عجيبـه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصبح يهبط على العادة، لكن من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف - ولله خرق العوائد - فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصبح اجتمع على ساحل النيفا أمـام قصـر الشتـاء خلق بلاد عدد يضربون الأمواج المتصـاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات لا الهول، لأنه لا أحد إلى تلك الساعة خاف مصيبة دانية، وطامة قاصية، ثم بالسرعة تجاوز الماء الحد وبلغ ١٣ أقدام و ٧ أصابع وعبَرَ السواحل إلى الحارات من كل جهة إلا حارات قليلة، وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات، وأرست عند

شبـابيك البيوت ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف وتضربها الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتماوج بقوة وسرعة فرّقت شمل القناطر، وشتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجأهم الماء ينطون إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقـون بأعمـدة الفينـارات، أو بأغصان شجر البولفار، أو بأعلى العربات، والخيل هلكت وفي لبّابها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتب غرقوا، فوق الماء يطفو كثير من الأمتعة التي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعها من المقابر البعيدة، والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشأم في النواحي الموضوعة على ساحل النيفا الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك ٧٦/علا الماء ١٦ قدماً، وهلك كثير من الناس خصوصاً في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أُذن للشغالين بسكنى الدور الفوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم واضطروا لتخليص حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص منشدين بلسان الحال:

أبـا منـذر أفـنيت فاستبْقِ بعضنـا حنـانيك بعض الشر أهونُ من بعضِ

وبعد الظهر بساعتين، حاكم المدينة ظهر في زورق باثني عشر مجدافاً في شارع نيفسكي وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس، وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه وكل شي بلغ الحد انتهى، فما أفظع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة. والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات، لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشقاقها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يبكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسـوأ حالاً، منهم يبكي جيف أقـاربـه، وغيرهم محـروم من المسكن والقـوت

والملبس، يئنون على طلول بيوتهم المندرسة . وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أوّلاً إلى بيت الحاكم وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة، وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأُعطي لأربعمائة عائلة وثمانين ثياباً ونقوداً للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، منهم ٢٥٠ يسكنون عنده دائماً، وقسم في اليوم الأول خبزاً بأكثر من ٣٥٠٠ ربل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم ويأخذ بعض الفقراء ٧٧/منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عادتها فنسيت خسارتها الخاصة واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليوني ربل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائط الإعانة والإسعاف أمر بنصيب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة، واحد في وسيلي أستروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ وواحد في ناحية فيبورغ، وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن ترسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدون الناس. على أن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات اللازمة، وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيراً من الفلاحين للأشغال، أُجرة الواحد عينت بربل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة ربلات في اليوم، وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمة الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحى ذلك الأثر. وفي ١٥ تشرين الثاني أُشهرت الصلاة لشكر الله الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب. وفي ٢٢ من ذلك

الشهر أشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، وثم انمحى ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفراً، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٧٨/ ٤٦٢، وتقور ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠,٠٠٠ بود سكر - والبود أربعون رطلاً - ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ربل، ومن الدقيق ٦٠٠,٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٨٦, ٤,٠٦٦، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيماً بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧م عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراعاً (٤ أقدام و ١١ أصبعاً)، فكان هذا حادثاً خارقاً للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع ولعت فنارات الخوف لإنذار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

الفصل الثاني

اعلم أن بتر بورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكيمة أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حدّ، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتماً في صفحة الدهر لا ينمحي، وهي منشأ التجديدات الروسية، وقد بزغت بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بأسره بلا إرادة، وهي التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله يد غريب متغلب، الذي له أوّل رتبة بين مدن الأوروبا بسبب تاريخه العجيب

وحسنه وتوحده في المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا تخت الأوروبا. ٧٩/. بتر بورغ التي تفكرنا دائماً ببطرس الأول أصل كل ما تراه في الروسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأُخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوى، بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها حام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي والجسور من أمة الروس المحلى بقوة متينة راسية لا تتزلزل، رَبّى وغذّى شجاعته الشابة، ولم تزل من يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالباً، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبييناً كافياً وتفصيلاً وافياً فنقول:

الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣ م، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيفا المحدق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيفا واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بياتينا من أعمال نوفغورد الكبرى. والقيصر إيفان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيفا الذي كان مدة قرون طريقاً لنوفغورد الخارجية رأت عدة مرات الروس، وسمعت غير مرة صياحهم بالنصر قبل ١٨٠ / أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسيا. والنوفغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢م فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيفا لتخريب اينغرى وكاريليا.

وبعـد نحـو مئـة سنة يعني في ١٢٤١م أرسل ملك السويد أريك الكبير بحصد النـوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاند بالتوالي دننما كثيرة العسكر لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت التيار حتى وصلت لملتقى النيفا ونهر إيزور، وصل في رأس جيش اسكندر يار وسلافيج أمير نوفغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة الذي بسببه لقب هذا الأمير نيفكسي سيمون وبوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوفغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكدرون الأرض المنسـوبـة إلى فوتسكيا بياتينا، وكان التلاقي عند فم النيفا وقاتلوهم ودمروهم، وبحيث أغـرقت كل مراكبهم. وقبـل سنـة ١٢٠٣م السـويد الأعـداء الـزرق للنوفغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك النيفا، وبنوا في سنة ١٣٠٠ م على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيفا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت نتيجتها لأن النوفغورديين ٨١/لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التـالية وطـردوا السويد وحرقوا القلعة، ثم في سنة ١٢٢٣م لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصـل النيفـا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أرخوفة أو أرشوك المذكور كثيراً في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨م ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوفغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من طرف مهبطون حول دننماه الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧م إيفان الثالث هجم بحملة فاصلة على نوفغورد، وصار أيضاً مالكاً العمارات البحرية

التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد. وفي سنة ١٥٨١م وسنة ١٥٨٢م القيصر إيفان الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع أينغرى وكاريليا، وأخذ السويد نارفا، وإيفان غورد، ويام، وكربوريا أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠م.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥م اعترف بأن الكل ما عدا نارفا منسوبة للروس بواسطة عقد (تياوزين)، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم، وفهموا فحوى قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

وملكوا اينغرى وكاريليا اللتين ردتا لهم في سنة ١٦١٧م بواسطة عقد سطولبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاند، ومجرى النيفا من كل طرف لم يريدوا أن ينتقضوا بحسن وضع ٨٢/هذا النهر، فمن سنة ١٦١١م أسسوا بناء على رأي جنرال غردبا المشهور على ملتقى أوخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محله بالنفس مدينة سموها نين وبقربها قلعة صغيرة سموها نينسانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليهعا كريستينا دعت كثيراً من التجارأن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى سنة أعمر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤م مركز تجارة معتبرة بحيث ان في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كان سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠م وسنة ١٧٠١م سكانها الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جداً حتى ان واحداً منهم يسمى فريزيوس سلف شارل الثاني عشر مبلغاً جسيماً، رأوا قرب الاشتغال الحربي وخافوا زحف الروس فتسللوا لواذاً في الوقت المناسب، وأقفرت بعدهم نين ونينستانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب بوسطة عسكرية منفردة، وكان

بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٤م حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك التي بناها النوفغورديون وقعقعة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠م في حصار نارفا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢م على سواحل النيفا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لاودوغة دوننما مخصوصة لإخراب القرى وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أمر كونيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإبراكسين مأمور هذه الناحية بظهور ٨٣/السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة والعنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقين إلى التحصين في جدران نوتبورغ. وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال السويدي أن يتدارك هزيمة الدننما وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على السواحل ابرورنهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نين شانتز في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ، وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مينتيشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة، وأمره أن يبني سفناً في منجرة المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نين شانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبل بورغ يعني البلد المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستوينا، والليتونيا، وجملة من الفينلاند، ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلد مارشال شيريميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبتدأ الحرب في سنة ١٧٠٣م بالمشي نحو

شليسبل بورغ، ومنها يهجم على نينشانتز، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمساً مبنياً في ركن ملتقى أوخته في النيفا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بتلة كبيرة للمرضى وكنيستين للوتر يأنيتي واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطىء المقابل لأوخته، وكان هكذا شكل نين ونينشانتر في خريف سنة ١٧٠٢م، وحين وصل خبر أخذ نوتبورغ، هذا الخبر تفوى سريعاً بظهور تجريدة روسية أرسلها القيصر في طول النيفا من البركة إلى أوختة، ولما نظر حاكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشتعل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان، لأن الروس ـ كما قلنا ـ لا يهجمون قبل الربيع، ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلة من شليسبل بورغ من طرف الضابط مينتيشيكوف، كدرت الخفراء من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣م في وقت ما سافر شيريميتوف من موسقو وتقدم مع العسكر إلى نينشانتز جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسبل بورغ وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض برياوبرارنسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كانت شيريميتوف على ١٥ فرست من نينشانتز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رأسه القولونيل نيد هارت والقبطان غليبوفسكي على سفن كثيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلّا بكشف الموضع ٨٥/، قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥ وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير

علاج على الظاهر لتملك الحصون الأُخر التي يحرسها ٨٠ (ثمانون) رجلاً فقط، لكن الشجعان الذين تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلاّ بمجرد الكشف تركوا غنيمتهم، وانصرفوا والسويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جداً، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل مساعدة في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منهـا لمـرامهم، وفي ذلـك اليوم بعينه الجنرال لابيرت رئيس الأشغال الهندسية الـروسية فتح الخندق بثلاثين سجيناً من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاونـاً و ٢٠ مدفعاً جلبت من شليسبل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مينتيشيكوف، وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الخفراء كما قلنا آنفاً في ليلة ٢٨ بإنزال ٤ أرط من عرض برياوبرارنسكي، و ٤ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدننما النيفا الكبير غير مبال بنار القلعة المهول، لأجل أن يسد فم النيفا الذي ربما يصل منه سفن السويد لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تقوم الدننما.

٨٦/أظهـرت لعين القيصـر أرضـاً وحشية لا تنعش النـاس ليس فقط هذه السـواحل، لكن أيضاً كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغـطى بالغـابات والمنتقعات غير المطروقة هناك، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقوتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينته من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة تيار النيفا، ثم إن القيصر لما أمّن سكان هذه الغابات في أنفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد ولا مركباً للعدو، ورجع في اليوم الثاني إلى المعسكر، وفي جزيرة

كوتويوف خلّى ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيفا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة اشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسبل بورغ كانت حاضرة لهدم أسوار القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطاً شريفة، إن ردّ القلعة بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عموماً، ورد السويد كذلك، وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى الخامسة من الصباح، لم يكن إلّا الإطلاق المتوال بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحس الحراس بضعفهم عن المقاومة زمناً طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلّى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في أيار سنة ١٧٠٣م في الساعة التاسعة من المساء أن عرض برياوبرارنسكي الذي كان فيه شاه زادة الكسي تعلم ضرب السلاح أوّلاً، دخل غالباً في قلعة نينشانتز التي في ٨٧/ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأوّل عمارات، قصبة مملكة الروسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينشانتز في يده بلا سفك دم كثير غيّر اسمها إلى سلوتبورغ، وفي ٢ أيار الصبح أشهر النصر بشكر الله وإطلاق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعاً إلى موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم، ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ أيار الخفر الذي خلّاه القيصر عند فم النيفا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضاً وصول الروس إلى نينشانتز، وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان، فأطلقت مدفعين إعلاماً بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح، ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيفا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية

الـذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي، وأرسلوا بغير التهامل وأخذ واحد منهم، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نوميرسي الذي غلبه ابراكسين السنة السابقة في لادوغة، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيفا ورمتا اللهب أمام مدخل النيفا في انتظار المستعملين والفجر، ولما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة ٨٨/من ذلـك، فذهب في المسـاء بعينـه وأخـذ معـه مينتيشيكوف بصفة رئيس الطبجية، وجملة من العسكر بعدما تكلم في ذلك مع فيلد ماريشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيفا، بقصد أن يهجم بالسرة إذا جن الليل على السفينتين المذكورتين، والهواء الذي كان أوّلاً ساكناً، والسماء المصحية أظهرا تسهيل قصد القيصر لكن بالسرعة عصف الـريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيفا بشدة، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خبرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها، وأن تنقسم إلى قسمين قسم يهيج في طرف الدفة من جهة البحر، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننماه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف، وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين، معاقل السويد ومثل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها، لكن من باقي الدننما التي نشرت قلوعها لتلحق معركة القتال، لكن عوقت بسبب قلة الماء، والروس هجمـوا على سفينتي السـويد، حيث تكشـر لهم المنايا عن أنيابها، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشيء عن الأياس من البخت الـذي ينتظرهم، والقيصر هجم على السفن أوّلاً، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفنتين، ومن ٧٧ رجلاً كانوا فيها٨٩/، وعوقب بالموت تسعة عشر

لعنـدهم، وكـل البـاقين وقعـوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أوّل ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهماً جداً أن بطرس باشـره بنفسه، وأشهره ١١ أيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ وقـرب السفينتين المجلوبتين بالـظفـر إلى أمـام القلعة، وبهذه الفرصة الجنرال غولـوقين قبطان باشا أوّل فارس نشان الحواري القديس لندري قلد بهذا النشان رؤسـاء الـظفـر والقيصـر وإشـرافـه مينتيشيكـوف، وأنعم على الضـابط والعسـاكـر الـذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلاً تحقق، ولما رأى بطرس نفسه مالكاً لمجرى النيفا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيفا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ أو يختار لذلك محلاً آخر أقرب إلى البحر، وبعد الحل العقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبعدها عن فم النيفا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحـر، وبـطرس لأجـل اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح فكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدينة كبيرة محصنة، وأن ينعش فقراء اينغرى وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع والفنون، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القول إلى الفعل،فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى ٩٠/اينساري يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيفا الكبير قبـل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي ستارنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢ كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت سينبوك أرضاً واسعة إلى فم النيفا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانين، وسمى هذا الملك لوست هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان

الضيعة بسبب البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة، ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، ولم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث إن أهل القيصر لم يقرؤها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويفسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن أحدقت بها المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتر بورغسكي ستارنا، وتسميها السويد كويفيساري، يعني «جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأُخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض، ووضع بيديه الحجر الأول ٩١/من البرج الموضوع على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتربورغسكي ستارنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملعونة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيفا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني السهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كويفبساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاؤلاً باسم الحواري القديس بطرس، وكان مينتيشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل وورون بيك كان ناظراً، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينشانتز، والذين كانوا مخيمين على سواحل الينفا العرّابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا

قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ربينين بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوبور باوام الذي سبب أخذهما بحيث بلا خسارة انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير، والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكراً مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أوّلاً هذا النظام الأحسن عرضي مينتيشيكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضي اينغرى، ومع أن هذه العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائماً في بتر بورغ من حيث انه كان خفراً مخصوصاً لمينتيشيكوف، وإعلاء جزيرة ايفيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخرى، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ربينين، ثم أهل اينغرى وكـاريليا وناس من أولونيتز ونوفغورد، وأحضر من داخل المملكة ألوفاً من الصناع والأسـطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والقلمون، وأعطاهم للمساعدة أسرى السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠,٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغـل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلّا القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء ثلاثة كبيك في اليوم، والكبيك عشر ربل، والكبيك في ذلك الـوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب هذه الشغالة ما كان لهم أوّلاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفة ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجـور قفـاطينهم، وبعـد الأشغـال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبـة تحت الضبـاب، والغيوم المطرة، وكان يتفق لهم أيضاً مقاساة الجوع لأنه لا يسهل دائماً تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠,٠٠٠ رجل، لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إعانة، والـريح المخـالف عوق سفن الفراء الآتية من داخل الروسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجاً عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب

والاجتهاد الخارج عن العادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كل ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشيء عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث ان بعد مضي أسابيع عدم جملة من الغابات والمنتقعات، ٩٣/وأن في محـل الدويرتين القديمتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصـدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة، ومن يوم تأسيس القلعة أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظر بين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسماً، وفوض الآخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصاً إلى ناريشكين وترويتسكي وذوتوف وغولوفكين مينتيشيكـوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظام مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر»، وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيداً اسمه ٢٩ حزيران ،وعمل مينتيشيكوف للقيصر وللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المـدينـة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخـرج وتـرسي، وبـطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف سنة ١٦٩٥م كييف نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيفا يلزم أن يكون للروسيا مفيداً، وما زال مسدوداً وما استراح حتى كمل قصده، وذلك انه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفاناً كاملاً جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيفا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن يكون ميناء للمراكـب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضوع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكره الحاد، ونظره الثاقب، فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غي منتظر عقد الصلح وغير مبال بصعوبة فيضان المياه، وبينما يرن خبط الفؤوس في هذه المواضع الساكنة، ما سكت السويد على نظر

هذا، ٩٤/بـل جردوا عساكر ١٢٠٠ من فيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كرونيورت الـذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢م في حرب مع ابركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبوراً صعباً بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غلب، غلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى فيبـورغ بعـدمـا عدموا كثيراً من أمتعتهم ومدافعهم، وبواسطة زيادة الشغالة االمتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق لئلا يتعرض لفقد الماء خصوصاً في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشهـا يحكى الـرخـام الأصفـر باسم الحـواري ماربطرس، والحواري ماربـولص، وهـذه الكنيسة كان لها ثلاثة أهلّة في أعلاها، وأيام الأحد والأعياد يرفعـون في قلب المـراكب، وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي الساحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير كعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحـة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب يظهر حاد، وصاري محفـوف بأوتـاد مذبـذبـة، وعلى الحصان يوضع العسكري المُذَنّب ذنْباً عظيماً مفرشحاً وعلى الصاري واقفاً، وهذه الجرسة كانت موافقة ٩٥/لعادة ذلك الوقت، وبقـرب بيت العسكـر بيت خشب منقـوش بكيفية نقش الكنيسـة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأُخر كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولص وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات». وفي برج مينتيشيكوف بيت لطيف صغير كان معداً للعقاقير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار

بين برج القيصر وبرج مينتيشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كويفي التي صارت جزيرة بتر بورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبيطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهادى على برجه، وأيّام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكاً بمخله وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وإطلاق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشرة يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريباً من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالباً، فبنى في جزيرة بتر بورغ بقرب الساحل النيفا الكبير بنحو مائتي سجين من برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتاً من الخشب عرضه ثمـانية سجين وسمكه ثلاثة، ومجدد الروسيا لما كان عدواً للترفه والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولانديين، لأجل أن يظهر حيطاناً من الآجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، ٩٦/وفي كل ركن بنية جاهزة للطلق، وهـذه الأشياء الثـلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور، وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضيع إلّا جليلاً ورفيعاً، وبنى مينتشيكوف محبة الرفعة والفخر أمام دويرة القصر بيتاً من الخشب أيضاً، لكنه واسـع، وفيه تشتهـر الأعياد ويلاقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كنّ الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في ١٧٠٢م وبطرس لما رمى أساس مدينتـه، ورأى إمكان تحصيل دننما، سافر أوّل تشرين أوّل إلى «لادينوي يوله» الذي سماها «منجرة أولونيتنز»، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطان و ٩ قبقات، ثم رجع

إلى بتـر بورغ في الفـرقيطة المسمـاة «ايتـانـدار» التي أنـزلها من المنجرة نفسها والمصحـوبـة بست قنج جديدة أيضاً، وفي مسافة الطريق بسبب الريح العاصفة الشديدة لبخت الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصلح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيفا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣م أن يبني في خط نوفغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل وأكثـرهـا بنـاها الأوسط جبريل مينتيشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في هولاند، وقلة الملاحين عطلت بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعا إلى خدمته ضابـطاً من هولانـد ومن البنـدقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب ٩٧/خصوصاً من سواحل البندقية، ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى ارخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» التي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيفا إلى فيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاند ابتدأ في التجلد قنجة واحـد إلى جزيرة ريتسـاري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣ فرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها، وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رأى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم أيضاً ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلّى في الجزيرة مينتيشيكوف مع ٤ أورط، وقسم على الأخر مساكن للشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسقو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النحاس، والسبع معادن كلها تقريباً مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسقو أبطل عادة مستعملة في الروسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم المنغول كانت مكروهة جداً لبطرس خصوصاً في وسط

الوحل، والمنتقعات، فلذلك حرّج على فعلها، والعامة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجوداً بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أوّل مرة بعد تأسيسها سفينة من هولانـدا، رئيس هذه السفينـة كان يجيء كل سنـة إلى خور فينـلاند، حيث ٩٨/كان السويد حاكم البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيسترا حيث الآن «سيسترورسك» و «سيستربيك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنا عشر مركباً تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة بها خصوص (دننما) القبطان نوميرسي التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر لالتماس إذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لما وصـل كان القيصر وحاكم البلد غائبين منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين ضمّنهما شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه وأراد أن يدخل النيفا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرسي الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولانـد وتتقوى بها عليه، قال له أن يقضي الليل مع ست من سفنه خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيسترا على السواحل التي فيها بعض عراض روس، من وقت هزيمة الجنرال كرونيورت، ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجـدت بغتة بعيدة من دننما نوميرسي، وكان النيفا والخـور إذ ذاك عاريين من الجليد، والسفينـة موسـوقـة ملحـاً وخمـراً، فقـابـل مينتيشيكـوف الـذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة الرئيس بغاية البِشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلاثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم

وعد أن يهدي لرئيس المركب الثاني التي تجيء بتر بورغ ثلثمائة مجر، ولرئيس ٩٩/ الثالثة مئة وخمسين. ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لالتفات القيصر، بل لحضوره أيضاً كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتنائه واجتهاده آمراً مشافهة إن كان حاضراً، وبالكتابة إن كان غائباً:

اعـلمـوا أنـي لكـم حافظ　　شاهـداً ما كنـت أو غائـبـا

وبينما كان يخترع الأشياء النافعة لإصلاح داخل المملكة كان يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع ويترك سفناً وغلاليين من كل نوع إلى نهر دونا، وبمجرد ما وصل من موسقو إلى فوروثيج أرسل إلى مينتيشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهـذا القصـد إذا فعـل قبلي الجزيرة خصوصاً من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومينتيشيكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتحصينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المـواد الـلازمـة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم والأشغـال في وقت واحـد تقـدمت وحصلت بالاجتهـاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث إنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاند على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار، وأرض كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيفا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة بعضهم في البناء وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف فرس بعدم الزاد وبالعنت، وهلك أيضاً كثير من الناس، وهذا كان قرباناً لازماً لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلة في الدننما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيفا كملت الأجزاء الأصلية من الجص ١٠٠/والقصبة المولودة كانت في حصن من جهـة البحـر، وصـارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجـار الآتين من نوفغـورد بالغـربـاء من الأستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المسـاكين الـذين حرمـوا بسبب الحـرب من المسكن ومن الصناع والأسطاوات

والنواتية الذين جاؤوا أفواجاً بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والقلموق المدعومين من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلاّ على عشرة خطوط، والخط المحلي الذي فيه تبنى السفينة، وعند رجوع القيصر من موسقو شاهد عدم انتظار وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها وألطفها وأجملها، لم تزل ساحرة لعيون النظار خصوصاً سياح الأقطار وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦م فاض النيفا، ومع أن الفيضان ما مكث إلاّ ثلاث ساعات سبّب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمل السكان، ولم يجد الأهالي عاصماً من الماء إلاّ الركوب في السفن، كما تداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧م، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت برداً وسلاماً، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨م، يعني خمس سنين من تأسيس المدينة استحقت بتر بورغ أن تسمى ١٠١/مدينة أوروبية، واشتغل السكان الذين أكثرهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخذ الناس كلهم سكنا ومثل الأرض كلها دارا

ولما رأى القيصر نتيجة غراسه، وقوة بأسه، اشتهى أن يري ذلك لأناسه، فعزم عائلته من موسقو لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولكن للعيان لطيف معنى به سأل المعاينة الكليم

وقد حصل في موسقو إذ ذاك بعض تنقلات أوروبية وتغيرات تمدنيه، ولكن

العوائد القديمة باقية إلى الآن عموماً، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسبل بورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتر بورغ ولاقاهم قبطان باشا ابراكسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بإطلاق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبراء العظام إلى بتر بورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت مينتشيكوف، وفرّجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان على بلاد الفينلاند فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد الكونت بونريرس ورجع بالظفر مع وجود دننما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك الكونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي ١٠٢/فيبورغ فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائماً عازمين على التألب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧م الجنرال لوبيكر بعسكر جرار (١٤٠٠٠)، ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطأة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيفا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطاً عظيماً أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظاناً أن يجد القوت الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلطه عليه (خطأ الطبيب إصابة الأقدار). ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدواً قاهراً لا يُعامل:

وأنفس خطبك الذي لا تناله وأنكى عدويك الذي لا تقابله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغرى المسكـونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابـراكسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففر ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبة، بذا قضت الأيام بين أهلها، (مصـائب قومٍ عنـد قومٍ فوائـد)، ولم يكن ملجـأ السـويد إلاّ البحـر الغضبان المتمـاوج، كثير الصواعق، ففر من فر، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمرّ. ١٠٣/لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباع، وعاق السويد عن ركوب البحـر، وأرسـل ابراكسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها:

رمـــاني الـــدهـر بالأرزاء حتى فؤادي في غشـــاءٍ مِن نبـــالِ
فكـنـت إذا أصـــابتني سهـــامٌ تكسرت النصال على النصالِ

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أوّلاً ثم آخراً على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أرهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النـواحي بالـروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقـطع لزوجته خمس ضياع، ولشاه زادة ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاه زادة أخته نتاليا، وأيضاً أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعاً مينتيشيكوف، فإنه أخذ جزءاً من أحد عشر جزءاً من بلاد اينغرى، وقسمت الروسيا أوّل مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨م. وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩م، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتر بورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراؤه أخبروا أنه بنى مدينة على الماء كل يوم تزيد، ورغّبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالت سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلاّ نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك وفي ١٠٤/ ١٧٠٩م، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشانة مارأندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينتيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عجَيبة الشكل، صُورت فيها صور مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها هذا النشان. وهذا اللعب سَرّ الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في الروسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتدأ بيده بناء بارجة وسماها «بولتافا» بأربعة وعشرين مدفعاً.

وفي سنة ١٧١٠م أرسل هذا العنقاء ابراكسين لحصار فيبورغ مرة ثانية، لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦م ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاند في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابراكسين ٥٠٠٠ رجل، و ١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هاون، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائط الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاند، وأطلقوا عليهم النيران، وعكسوا عليهم النيران حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلاّ زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت

الذي هو وقت التحلل، فما أشد فرح ابراكسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المذد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في الروسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر ١٠٥/لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدننما التي قضت الشتاء في بتر بورغ، وأرسل مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي، وفي هذه السفن ١٠,٠٠٠، فتقدم في رأس الدننما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعاً، وفي وسطها بنديرة كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدننما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلّاع الثنايا، ومقتحم المنايا دائماً يستسهل الصعب ويستهون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المغافرة وشدة المعاقرة، وانحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعاً ومنجّه بالبومب، ونشرت هاتان السفينتان الشراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غيّر الأمر وقوّى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصل النزاع، ودخلت عساكر بري أوبرارانسكي القلعة ظافرين، وأعطى لإبراكسين جزاءً على ذلك نشان مارأندريا.

قلت: وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضايف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وأبنيتها بديعة تشابه مباني بتر بورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «موت ربوس» للأمير نقولة، وقد قضيت فيها بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق ١٠٦/ لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنفية ماء

باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثراً لبعض بلدياتـه الفرنساوية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر وأكرم مثواهم، وفي المدينة تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجراً كبيراً منقوش على سطحه « ПI » يعني بطرس الأول، لأن بطرس لما وصل، صعد على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائماً في التقدم، وفي فيبورغ كحل مشهور باسمها يجلبه المسـافـرون، لذيذ الطعم، وبعض الخبازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشنب»، وبنواحي فيبورغ فوّارة ايمترا، وهي فوارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وينحدر الماء من أعلى الصخـور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، وبالجملة ففي الفينلاند ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا»، ومن قوة الماء تتصور بصور شتى، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتيكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هاودوا بها والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم من خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزين، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أُنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات تاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم ١٠٧/ . وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتر بورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكيا سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفـواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقي كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فوراة سمسون أمام القصـر القيصري، يرتفع فيها الماء جداً، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حِذاء سقف القصر.

وفي أوّل تموز ذهبت هناك وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها خلال العيون، بحيث إن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت بولتافا، أُديت مراسم العبادة والشكر لله، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أُطلقت المدافع من القلعة والسفن، وفي المساء عُملت على النيفا حريقة وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولهم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحها أطاعت كل مملكة كاريليا، فإقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠م ما كانت إلّا أعياداً:

أولاً ـ بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شيريميتوف ريغا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك بيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ وفي ٢٩ تملك باور من ريفال، وعلى هذا المنوال طاعت بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: ١٠٨/وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاند في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلدة قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جداً، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جداً، صعدتها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسح تسمى «كترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعدّاً لسكنى شاه زادة قسطنطين

وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة متحجراً كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين وفرجة للمسافرين، ووضع في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانياً ـ بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاه زادة حنا، وذلك أنه في ١٤ حزيران جاء سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتّب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ بولتافا وهزم عساكر شارل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا ماراً على بلاد اللين، وطلب من الملك فردريك الأول المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعاً لبلاده ١٠٩/حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس وأكدها بوعده أن يتزوج ابن أخيه بنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة. ولما رجع إلى الروسيا مرّ على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفال أهدى له مينتيشيكوف حجراً أزرق شفافاً عجيباً ثمنه ٥٠,٠٠٠ مجر وحصاناً تركية، وفراء ثمينة وتحفاً أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي ضرب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنتينة قبل نارفا، وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزينتين و ٤٠٠ فارس لحفظه و ٥٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أوّل مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهما كل يوم، وبهذه الفرصة زادت الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القيصر إلى شليسبل بورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل مينتيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابـراكسين، وفي ١١ عمـل مثله الأمير تشاركايسكي، ثم عمل قومٌ آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل مينتشيكوف ليلة رقص ثانية، ودام الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغيره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشـرين الأول أشهـر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، وهذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة. وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠م، في محل يسمى فيكتوري (يعني النصر) دير اسكندرنيفسكي، وهذا الدير كبير جداً، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسيكت.

١١٠/وفي عيد اسم الاسكنـدر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجاً، وزيادة على القصـور والأبنية في المـدينة، أحدث القيصر قصوراً خارجها، فأوّل ذلك قصر كتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك. كل ذلك محفوظ إبقاءً لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرنيغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنينة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسح خصوصاً يوم الأحد، وفي أوّل أيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، والأول يوم مشهـود، كثير الـزحـام الفرح، لأن ذلك أوّل اخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يعمل الرخام بعد ذلك:

كالـبـدر لا يُرتـاد وهـو منـوّر   وتـرومـه الأبـصـار وهـو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضاً في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه، ولا يضيعـون الزمن في تفتيش منزل، وكذلك رتب معاملاً للآجر قريبة من المـدينـة بحسب الإمكـان لغلو الآجـر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتـابعـة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢م، نزل من المنجرة بموكب عظيم،

الغليون الكبير المسمى بولتافا الذي ابتدىء فيه الشغل سنة ١٧٠٧م، ولا زال في كل سنة ينشيء وينزل سفناً عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصاً في أيام أعياده وأعياد أهـل بيته، وقد رأيت إنزال سفينتين من منجرة بتر بورغ إحداهما باسم الإسكندر ولي العهد، والثانية باسم زوجته مارية، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلّا عند حضور القيصر والعائلة الامبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد، ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع قطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القـطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان ١١١/ السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيها.

وفي سنة ١٧١٣م حاصر القيصر بطرس هلزن فورس ثم رجع إلى بتر بورغ. قلت: هلزن فورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر اسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفاً، ورأيت في مينـائها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبوغاز الاستانة المحروسة، وأي مركب تقدر لا على العبور إذا لم يكن لها إذن، وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها تقد لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتر بورغ في البناء، وتوسيع الطرق، إلّا أن الممشى بهـا قليل، ولعله يصنـع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمـومية تسمى الأونيفـر ستيت، فيهـا مقعـد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صور اسكندر الأول وعمود مكتوب فيه اسمه وتاريخ تأسيسه. هذه المدرسة سنة ١٨١٥م، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبوه، فلما حرقت سنة ١٨١٨م، نقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سينوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوصة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار،

وهناك منجرة ومحل للأسلحة كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكاراً لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز ١٨٣٣م، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويههم بشأنهم.

١١٢/وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتر بورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أخذت منها، وجعلت أساس خزانة كتب اكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتر بورغ، وهو كتاب إغارة عسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح بولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر من جملتها؛ سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرية عجّب الناس، ولما مرّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر ونحو ذلك ١٥ رُبلاً، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتر بورغ خصوصاً في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعمل بقراً وحفظ إلى الآن، وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم. قلت: والآن في تسارسكيا سلو فيل من مدة سنين تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخارى الذي وصل سنة ١٨٤٩م حمل معه أيضاً فيله، لكن ما وصل إلّا في الصيف بعد موته هو في بتر بورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غاغارين حاكم سيبيري بيتاً عظيماً وبقربه بنى الأمير شانيروف وزوتوف وغيرهم، وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيفسكي بروسبك، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتر بورغ.

١١٣/ ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أوّلاً الطريق واسعة طولاً وعـرضـاً ووسطها مبلط بالحجارة وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما هول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب المرصوصة بحسن الترصيف وعليها تمر العـربـات مسـرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجـر الصـوان لمشي النـاس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر، وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفـاً وشتـاءً، فهـو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة مِن كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجوز لكل من يريد المطالعة فيها أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلّا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلّا بإذن خاص.

وكم رأيت هناك زيادة على الأوروبيين من فرس وروم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضاً التياتر الاسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحديقة لطيفة، وفيه أيضاً السوق الكبير غوستولي دفور، وهو بنية عظيمة، مربع الشكل، يباع فيه كل شيء.

وفيه أيضاً بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على مخازن عالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فبريق شمع من ناحية فيبورغ وسوقا في جزيرة بتر بورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند ١١٤/ في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيرها القيصر بنفسه مثل

الملاح إلى الجزيرة ، وضرب صفيحة عليها نقش صورته لتذكار فاتحة التجارة الخارجية .

وفي سنة ١٧١٤م ذهب القيصر إلى ريفال لتأسيس المينا ، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد وجلبت إلى بتر بورغ ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها ، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتر بورغ ، فوجدت ٣٤٥٥ ، ووفد عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك ، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد ، وأُطلقت المدافع في القلعة ، وتبعه ٣٠٠ سفينة ، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدننما الروسية ومیناها حصينة جداً ، بحيث لا يمكن بها لسفينة العبور إلاّ بالإذن ، وكم فيها من سفن وبوارج بعضها من أربعة أدوار كبار راسية كالجبال بمائة وعشرين مدفعاً وأكثر ، وهناك مدافع مرصوصة ، وقد دخلت المدينة من البوغاز بعد أن جازوا الجواز ، فوجدت أبنيتها كأبنية بتر بورغ إلاّ أنها مثل ضواحيها ، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية ، وبها ترسخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلدان واقفاً على عمود وبيده سيف ، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١م ، وهي محتشمة جداً وبها جنينة كبيرة تسمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر ، فيها كشكات لطيفة ، وفيها منظر عال ، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣م ، وصعدت هذا المنظر ، فرأيت منه البحر والسفن ، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة .

وفي الجنينة فسقيتان كبيرتان مربعتان ، في وسط كل زورق صغير جداً في غاية الظرافة بصاري لطيف ، وهناك خليج مرصف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها ثم يوضع حاجزان من الطرفين ثم يخرج ١١٥ / الماء بالتو تعمر المركب ، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجرى إلى البحر . وفي اليوم التالي سافرت السفراء ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة ، فأما القيصر فوصل بلا عائق ، وكذلك السفن التي تبعته ، وأما سفينة السفراء وأعضاء

المحكمـة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الرئيس والمستعمل، ولبَخَت في الخوص وتعوّرت، وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأنـذرت بالهـلاك. وفي اليوم الـرابع خلصت من الخوص بواسطة سفينة أخرى أرسلهـا القيصـر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، وبعد الجزع والفزع والهلع، قَنِط وتغطّى ورَقَد على المطوبة (أي سطح المركب ينتظر الموت)، وأمر الملا الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمَرَ القليصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أوّلاً مائة نفس يبنوا لهم بيوتـاً في المحـال التي تعـطيهـا لهم المملكة، وأمَر الأغنياء والملتزمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيراً من المأمورين خصوصاً البيار (يعني المتلزمين الذي اضطروا إلى ترك مسوقو وطنهم العزيز وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة)، كما قالوا إلاّ بالدموع والمنتقعات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقاً:

أمـــر على ربـــعـهـم ساحـــلاً	فأرجـع من دمـع عيني خصيبا
فوا عجبـاً لبحــار الــدمـــوع	ومـــا أطفـأت من فؤادي لهيبـا

لكن بطرس لم يتفكـر إلاّ في عاقبـة وطنـه السعيد، واستبدل الراحة الجزئية براحـة العموم، وما فكّر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائماً في المعارك، فذهب وحـارب وأسـرَ قبـطان السـويد إبرنسشليد مجروحاً بعد ساعتين من حروب خطرة سَفاكّة، وسطوات فتّاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسرَ الباقون. وقتل من الـروس ١٢٤ وجـرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس أبو بلا عائق، وكتب القيصـر إلى مينتيشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في

هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد مارشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك بنصر مبين ما كان له نظير إلى الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السنة من الفينلاند، منها مدينة قازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاند، ثم رجع إلى مدينته ظافراً، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترنيغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبّرت عليه الأوقات، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنىء بذلك، وحصل له السرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي أو ستروف في قصر إشراقة مينتيشيكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من جملة الحاضرين قبطان السويد إبرانسشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيراً إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعاً خادماً أميناً لملكه مستحقاً ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضاً لإكرامي، ومع أنه قتل من رعيتي كثيراً من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلّا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق رعايتي له لا تنقص أبداً، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلّا ما اقتضاه الواجب، وإن لم ١١٧/ألاقِ الموت الذي طلبته في معارك الحرب فمما يسلبني الفكر بأن غالبي ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانه وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه　　　بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن يذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسبل بورغ من الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية، وقادوم الشنان، تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: يا إخوتي، من كان يقدر

منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هناك على ساحل بحر بلطيق أن تغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون في قليل من الزمن، تشاهدون جمّاً غفيراً من العسكر والنواتية شجعاناً مجربين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليس فقط بالأهالي المولودة في الروسيا بل بالمحترفين وبالأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا وتوطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنوّرة. المؤرخون نسبوا إلى الروم الشرف بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوروبا، ودخلوا اللين وما وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه، الغرماينا (Germanya) واللين قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن وتصدوا بنفسهم إلى نشر ١١٨/هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقاً في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجو أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر بلاد الروم وطنها القديم، والكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوماً، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفىء التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون اسمهم على قمة المجد المنيعة.

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سمعت بغاية الإنصات الديني وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقيقة كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفاً للقيصرة نشان كترين شكراً لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها

أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كل ما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث إن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالته، ثم بعدها شاه زادة حنا بتروفنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة صاري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السنة كتب فرماناً ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتر بورغ ١١٩/إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرماناً آخر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتر بورغ لا بد أن تحمل معها بعضاً من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلاً عشرة أرطال، والآتية في العربات لا بد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمانات فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصاً إلاّ بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا سبب كثرة اللصوص والمعاكسين الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجربين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب ، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لساناً وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيمارقي والإيطالياني والاسبانيولي والرومي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والقلموقي.

وفي سنة ١٧١٥م اعتنى القيصر بتحسين المدينة واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعاً، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت إلى بترغوف ومن هناك إلى كراسني سلو. . الخ.

وفي أول هذه السنة أشهر عرس الأمير توزوف وكان عمره ٨٤ سنة وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل رقص مسخرات، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم غريب، وعقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلّا بغاية الصبر، وقصد القيصر من ذلك فكهة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة. وفيها أرسل القيصر سفيراً إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبيريا حكيماً، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيباً إنكليزياً كان في عسكره وأصحبه بمهندس.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد وسمي على اسمه بطرس، وأشهر فرح الولادة أسبوعاً، وأرسل القيصر إعلامات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكرياً شاباً اسمه كاسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم»، وكتب مثل هذا إلى فون هوفت، غير أنه قال: نواتياً شاباً وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: أرجو الله أن أراه يوماً تحت البندقية.

وفيها أُسست أكديميا الملاحة وتلك قوتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سفرتين لرؤية البلاد الغربية فنَفَسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلّا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من

الحيوانات والطيور والأسماك والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلـك من أشياء الصنـاعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئاً بقيمة ١٥,٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند سنة ١٦٩٧م، وبقي في موسقو. وفي هذه السنة ١٧١٦م، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجـار المعـدنية، ومن الـودع ١٢١/اشتريت من العالم غوتفالد، وكتب عظيمة جلبها مينتيشيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤م، وبعد سنة ضم أيضاً جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي أوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزدادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتوٍ على عدة أوضات واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسمـاك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرج العامة فتذهب الناس أفواجاً لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنـة ١٧١٧م، حفـر أربعـة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانسا، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة الكونت بروس. وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنا عشر سجيناً، وناقوساً أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥,٠٠٠ ربل خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٠م.

وفيها أُهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جداً بحيث تكلفت مبلغاً جسيماً في نقلها براً من كيل إلى بتر بورغ أهداها له دوقة شليشبل هولستين لما عرف شغفه بالعلوم، وفيها ابتدىء في بيت لعب التياتر بمعونة شاه زادة نتاليا الكيسيفيا.

وفي سنة ١٧٨٠م قضية ابن القيصر شاه زادة الكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج الروسيا، كل ذلك

أغضب القيصر حتى هدد بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفعل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان ذلك بلا طائل:

إذا أظهــر الــدهــر شخصــاً لبيبــاً فكــن في ابــنــه سيّءَ الاعــتقــاد
فلســت ترى من نجيبٍ نجيبــاً وهــل تلد الــنــار غير الــرمــاد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزع، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسلية الأحباء المحققين له عفو والده، ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، كأنه نسي عيوبه وأفعاله:

وإذا المنية أنشبت أظفــارهــا ألــفــيت كل تميمــة لا تنفــع

وفيهــا أمــر بإحــداث ضابط سياسي للمــدينة، وترتيب كونسلارية السياسة، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعاً:

١ ـ الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.
٢ ـ أحكام شواطىء الأنهار والخلجان وحفظها.
٣ ـ السرقة.
٤ ـ النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجارة الوقود.
٥ ـ النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمنها وذرعها ووزنها.
٦ ـ رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.
٧ ـ فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.
٨ ـ النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات.
٩ ـ النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.
١٠ ـ إمساك المساجين والهربانين والبطالين.

١١ ـ إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢ ـ الاعتناء بإمساك المؤذين وإطفاء الحريقة ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٣/١٢٣ ـ الاعتناء بنصب مسدّات في المدينة وأون [1] باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤ ـ إسكان النظام في بيوت الناس أيّاً كانوا كباراً أو صغاراً.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبنى البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطىء الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، بكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج وتنظيف المماشي منه، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه، فدائماً يمكن التفسح بسهولة، وأمّا طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلّا في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأما شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالباً عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل:

يوم تود الشمس من بردها أن أتت النار إلى قرصها

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في

---

(١) أون: عشرة، أون باشي: رئيس عشرة، الكلمة تركية.

الحال، وأمّا المداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة فحينئذٍ يولع فانوس لإعلام الناس، فيأتي المطفئون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والفلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلا بد من التعليم على تذكرة مروره. ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئاً مخصوصاً، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشي البواب أمام البيت في الليل بعصا يخبطها على الأرض، وفي البيوت الميرية زيادة على ذلك حراس وديدبانات، وللأقوات من طرف الضابط سعر مخصوص يكتب في الجنرنالات لتعرفة العامة، ومن طفف في الكيل أو الميزان فعليه الغرامة. والمجرمون يُقادون في السلاسل ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسّادّة على المُؤذين كل طريق.

رجع وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حدب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيات تفكر أنه بقي عليه أيضاً تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للّذات اللطيفة التي ما عرفها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل التعلقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلّا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسيا، لكن كل ذلك معارضاً بحجر الآباء والأزواج، فكُنَّ يعشن في الحَزْن بلا رجاء ولا حظ ولا مَيل بسبب حَجرهن في البيوت، فلم يبق لهن إلّا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئاً من معيشتهن بالسكون والهدف والصلاحي، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت المرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً، ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدّعى من امرأة متزوجة حرمت

في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن ١٢٥/أن تقيس ما يقال وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الهيبة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بسقت، وانكشفت بالتدريج رغماً عن اجتهادات القيصر، وعاقت أيضاً تحصيل مقاصده لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م فرماناً لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء، سواء وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أياً كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضاً، لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها، وها هي:

١ ـ إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعلم الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بالكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

٢ ـ الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمس بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

٣ ـ صاحب البيت ليس مضطراً إلى ملاقاة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم وموانستهم، بل بقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيىء ذلك الأوض بالسّفر والنور اللازمين والمشروبات التي يطلبونها، وأن يضع على سفر مخصوص ما يلعب به كالورق.

٤ ـ لا تعين الساعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاؤوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ولا بعد ١٠.

٥ ـ يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرارٍ لآخر، ١٢٦/ويمنع من القيام عند ذهاب أيٍّ كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقَب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كاساً كبيراً عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الآثم ويحتسي فقط. يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

٦ ـ يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

٧ ـ الخَدَمَة والقواسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكثون في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايف ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

٨ ـ الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسيجار، وفيها سفرات عليها الخمر والكبريت... الخ. والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهراً فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأوّل الجمعيات كان عند ابراكسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار. وفي يوم الجمعة يحضر رئيس السياسة يكتب أسامي الواصلين، ويجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الامبراطورية، ويفتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنجليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى إنهم زماناً طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم. وفي وسط أدوار الرقص تحضر الستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوق هولستين فعل ذلك أوّلاً فاتبعه الناس، وهذا الدوق أوّل من أظهر لكبراء بتر بورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها ١٢٧/من ويج، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلاّ أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسناً يفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة. وفيها حفَر القيصر خليجاً بين النيفا وفولكوف دفعاً لخطر الغلّال ونحوها إذا أحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغريبة، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوصطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدروف، وفبريقة بُسُط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المـدينة في هذه السنة زيادة على الأمور النافعة اللازمة أصناف الفنون والحكم وأنواع التَرفّه والنعم.

سنـة ١٧١٩م فيهـا أرسـل القيصـر رجلين عارفين، لكشف شبـه الجـزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١م، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحَلَ آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أوّل نيسان كوميديا عجيبة، فأحطع الناس زرافات ووحداناً لرؤية اللعب، لكن بدل الكوميديا رأوا ألواح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أوّل نيسان»، ففهموا وسروا بمباسطة القيصر لهم، كما يباسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعباً في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يَدَسّي عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أوّل نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر ١٢٨/بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسره اجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسماً منبسطاً: هذا أوّل نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم. وفيها غنموا من السويد

ثلاث سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، ضربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها تحمل بناء تسارسكيا سلو وابتداؤها في سنة ١٧١٠م، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقاً عريضة، وبنيت فيها قصر بغير علم القيصر، وعندما تم عرضت عليه أن يذهب معها للتفسح، فلما رأى ذلك سُرَّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت متنزهاً لسكان المدينة يذهبون إليها كل يوم، والآن زادت حسناً وجمالاً وبهجةً ودلالاً.

سنة ١٧٣٠م فيها غنم الروس من السويد ٤ فرقيطات، وأنعم القيصر أوّلاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير غاليتسن الغالب بسيف وعصا مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقّى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالصلاة في الكنائس شُكراً لله، وأَمَرَ أن تدخل السفن المكسوبة بموكب عظيم إلى بتر بورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك حرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع الفرقيطات، ومع كبر المدينة يوماً فيوماً، وازدياد السكان وقتاً فوقتاً، وتكاثر الفتوح حيناً فحيناً، وتظافر العلوم والفنون آناً فآناً، فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقاً صعباً يتعب ١٢٩/القيصر في قطعه، وثعباناً لسّاعاً لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٣٠م أن فلاحاً كان يدعي الكهانة، وقال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر الموجود في القلعة، فصدّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام

والتجار إلى أعالي بتر بورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠م قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذّب الله أقوالهم، ولله در أبي تمام حيث حضّ على عدم سماع هؤلاء الدجالين فقال:

السيف أصدق أنباءً مِن الكتُبِ   في حده الفصل بين الجَدِّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشكِّ والرِّيَبِ

وقال آخر:

دع النجوم لطرقيٍ يعيش بها   وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبيّ وأصحاب النبي نَهوا   عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

وكما وقع أيضاً في سنة ١٧٣٠م أن قوماً أهل سوء خدعوا الناس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدموع تجري من صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهموا بالخروج، وكان القيصر غائباً ذلك اليوم، وما قدر الكونت كالوفكين أن يُسَكِّن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب، وعوقب، وأُظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيراً في قمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجو أن تندفع ١٣٠/بهمة ولده مولانا السلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١م، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير غاليتسن رئيس الدننما التي في فينلاند بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف في ذلك الصلح على أن أستونيا وليفونيا واينغرى،

وجـزءاً من فينـلانـد مع مدينة بتر بورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أُطلقت المدافع، ودقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهـم بانقضاء الحرب وعقد الصلح . وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرض متلقداً بحمالة مار أندريا، وسلم على الناس بالحشمة، وقال: «أسلم عليكم أيها النصارى الحقية، اشكروا الله القـادر الـذي أعـطانا وأعطى السويد صلحاً خالداً بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة»، ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبـابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها من الحرب». ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقّى أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبـة الضـابط، ونشـر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحـارات متلفعين بشمـلات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتبعهم الطرنبيطات.

وفي المـدينـة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سنيات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكراً على سعيه الجميل أن يتلقب أب الـوطن وامبـراطور كل الروسيا وبطرس «الكبير» بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتـوسيع الـرقعـة، التي كانت الروسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقتـه ١٣١ /واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أوّلاً تواضعاً لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أوّلاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا الناس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجبِ حقه وحرمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكره الكونت كالـوفكين من طرف الرعية على إخراجه الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجـد العام، وعلى إخراجها من العدم ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم

ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفاً، ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلّا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل الروسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس وأُطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكن الصدى رق القيصر بأعلى صوته:

«أتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكراً صادراً من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نغفل صنعة الحرب، وإلّا تقاسي الروسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي منّ الله بها علينا داخلاً وخارجاً، لنخفف بها أثقال العامة»، ثم صلوا وقرأوا الإنجيل، ثم أُطلقت المدافع أيضاً، ثم جثا كل الناس وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للامبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات ١٣٢/والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سنيات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص، وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠م إلى سنة ١٧١٨م التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة الروسيا، وعملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور قمين ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة، ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر، ثم بعد الرقص عملت الحريقة، ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد بانوس وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠,٠٠٠ نور مختلفة الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنه سلاح الروس، والآخر سلاح السويد تقاربا قليلاً من أبواب المعبد وتصافحا علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جداً، حتى كانت أسوار بتر بورغ والنيفا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال الحق يفعص برجله جنية، وعليه مكتوب «الحق دائماً يغلب»، وعلى الشمال سفينة تاركة بحراً عجاجاً لأجل أن تدخل في المينا، وفوقها مكتوب «إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، ورجع القيصر إلى سنيات، وهنأ الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى الساعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة وجوزي كل مَنْ حارب السويد من الضباط والعسكر كلٌّ على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرنسشليدا المذكور سابقاً بإعطائه صورته المرصعة بالماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد ١٣٣/على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيراً أبلى بلاءً حسناً، وأظهر الشجاعة التي لا تنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة، فلما وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقّاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار، يعني عربة الزحلقة مع عياله ومع عرضيين من الخفر لإشهار ذلك الفرح فيها أيضاً، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الامبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أوّل مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيفا في هذه السنة، و ١٠ كانون الأول وبلغ ٧ أقدام، و ٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات وقطع العبور ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤م، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذلك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢م فيها قضى القيصر جزءاً من السنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عن أوخته وحارة بكنيسة النجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣م فيها، وصل أميرا هيس هومبورغ أخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦ سنة، وسألا الدخول في خدمة الروسيا، وقُبلا، وأُعطي لكل رتبة قبطان وجامكية ستة آلاف ربل في السنة.

وفيها ٢٦ آذار انسَرَّ أهل المدينة بفرح أُعلن أكثر من سائر الأفراح، وزاد به للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسسي ميخايلوفيج زورقاً، وفي سنة ١٦٩١م رآه بطرس وهو شاب في قرية ازمايلوف، قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس وسأل عن أصل الزورق، ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن ١٣٤/أيضاً بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي إسمه برانت، كان مستعملاً في أيّام القيصر الكسي في الفرقيطة المسماة «أرول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التجار الروسية على بحر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠م تحت أسوار استراخان حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وآل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك الموجع، لا يعيش إلّا من صنعة النجارة، فأُخذ إلى بطرس، وعمَّر الزورق، ونصب فيه صارياً وقلوعاً كافية. وصار مقاطعاً لتيار لاوزا بمرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه، ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الدفتر بالشطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسيها سبباً لمجد الروسيا الأثيل، وتمدنها الجزيل، وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأبيض «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

فلما تمّ الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة،

وبسببها قُلِّد بطرس نيشانات النصر الموقور، ولُقب بالامبراطور، وسُلِّمَ عليه باسم الكبير، والأب الخطير. لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجاراة مشاركيه، ومكافأة معاونيه، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السعادة السرورية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسبل بورغ في ربيع سنة ١٧٢٣م.

١٣٥/بعدما استراح ٣٠ سنة، وفي ٢٨ آذار فخرت الدننما المزينة بأحسن زينة في النيفا، وأُطلقت مدافع القلعة، وأُرسلت الدننما عند ديرنيفسكي ومكثت طول النهار.

وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوفكين والرئيس سينياوين، ويتبعه ٩ سفن، فلما وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأُطلقت المدافع، ودقت الموسيقى العسكرية، وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق، ورقى إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الأمير بديراسموليني رحبت القيصرة بهذا الزورق الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعاء والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سنيات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أوّلاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدننما، ثم عملت الحريقة في الليل. بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليبس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة تخلف بعض الملاحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ ربلاً لكل سفينة.

ومنها طاب الهواء في نيسان وأيار وحزيران، فكانت الدننما كل أسبوع تجول

في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال:

١٣٦/ أنا والله أصْلُحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتيهُ تِيها

وبالجملة فقد صدق من قال:

إنّي اطّلعت على الديار وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعاً لإشهار النصر أيضاً، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الكثير المنعقد للروسيا، وما نزل الزورق في القنجة وعَامَ والدننما تشيعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأُخرج إلى الساحل، وسُلّم لحاكم القلعة للحفظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصروف جداً، فالبارود المحرق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ ربل، والقارىء يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس الدننما التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما.

وفيها وصل سفير الفرس ومعه تبع ثلاثون نفراً، وأُطلقت لقدومه المدافع وشيعه العساكر إلى البيت المعد له وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة من أخطاطها للروسيا، وهي ضاغستان وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد. ومن الأبنية في هذه السنة بيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبرها بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهداً على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من

أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتبدياَفلوسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠,٠٠٠ ربل، مدخول خمسة بيوت الآن، ١٣٧/وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه سنة ١٧٢٤م.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثني عشر عضواً ماهراً في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذاً، وعين للأكديميا ٢٤,٩١٢ ربل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكونوا مِن أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتر بورغ، لكن الله ما أذِنَ لمؤسس الأكديميا أن يعيش زماناً طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلّا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥م، وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازبة أضعفت القيصر وأوهمت جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤م إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السنة، خصوصاً في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتر بورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير، ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو، وأشهر تتويج القيصرة بعده لأن الموت لم يُبق له ذَكَراً وارثاً للتخت، ثم رجع إلى بتر بورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، ١٣٨/وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرضة الخطوب ومعترك

الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير اسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتر بورغ، ودفنها في الدير المبني بهذا الاسم، لأن هذا الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من ٧ فرست من الدير، ووضعت السفينة التي أمسك القيصر دفنها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القطيفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تشورن ريتسكه، يعني الخليج الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السعيد على الروسيا، وأن يقوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفاً.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقته الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له، لكن لازمه. ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولوينتز، وطرق بيده صفحة جديدة وزنها ٣ بود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته، ثم رجع إلى لاختا في عشية مَطِرَة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقاً آتياً من كرونشتاد وتلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانته زورقاً، ولا زال مُتبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظراً بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ فترك في الماء ١٣٩/ إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعوم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سبباً لاخترام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥م، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتر بورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيَل:

كلُّ شيءٍ قاتلٍ حين تلقى أجلَك

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب لكن وقعت من يده الريشة وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقض حتى حلول المحاق وزاول:

توقى البدور النقص وهي أهلَّة ويبدو عليها النقص وهي كوامل

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع المآق، فسبحان من لا ينفذ مُلكه ولا يبقى إلاّ ملكه، له الحكم وإليه ترجعون.

الفَصل الثالث

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدار الآخره، وبقي اسمه مخلداً ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته كترين، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنت قريباً من مائتي مدينة، وملكت قريباً من ثلثي بلاد اللينة الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتر بورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس ١٤٠/ الأول، وكان عاش طول عمره في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبني في شارع نيفسكي كنيسة للوتيريانين، واتخذ قصر مينتشيكوف في وسيلي أوستروف مسكناً له، وسماه بتسمية نوفويري أوبرازتسكي، والقيصرة حنا يوحانوفنه، وأظهرت رجحان بتر بورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكناها قصر قبطان الكونت ابراكسين على النيفا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبني محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب

اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتر بورغ.

وفي زمانها أيضاً عمقت مويكه، وبني محل كبير للعسكر عند قنطرة ازمايلوف وبدل بيوت الخشب القديمة التي كانت ببيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل القصري لا يبنى غير بيوت الحجر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون وزيدت عدة كنائس ببناء كنيسة الصعود التي سميت باسمها حارة فوزينسيكي، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧م، ما كانت تجاوزت بتر بورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكذيميا الحكمة والجراحة إلّا حارتين أو ثلاثة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائراً في حارات وسيلي اوستروف المسماه الخطوط، وما كان جاهزاً حقيقة إلّا الأوّل وبتر بورغ القديمة، كانت كثيرة السكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من ١٤١/بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلّا خميلة عريضة غلباء منطقة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغريبة والأوروبية، لكن أيضاً بالنباتات الآسية والإفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء. ولم تزل القياصرة تعتني ببتر بورغ التي صارت تخت المملكة الجديدة، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحس، اقتضى زماناً طويلاً ومالاً جزيلاً، وتعباً جليلاً، وذوقاً جميلاً، واليزابيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوى على ساحل النيفا أمام أوختة عند حوش اسموليني دير التثليث للنساء، وكنيسة التثليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور الكونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة

القيصر الحالي نقولة الأول. وهذا الكونت قد زين المدينة في أيّام القيصرة إليزابيت بقصر انيشكوف في ١٧٤٨م، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤م، وكمل في سنة ١٧٦٢م، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥م، وضع أساس غوستين دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل إلى المنظر الجديد الذي هو فيه الآن إلاّ في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥م، وكترين هذه اعتنت جداً ببتر بورغ وكبّرتها وحسّنتها واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى تسارسكيا سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وأحدقت جنينة الصيف بدرابزين كبير، حسن الصنع، عجيب الوضع من السبع المعادن، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغا بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط ببافلوفسكي وغاشيتين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسيا، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظماً وحسناً ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجيناً وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جداً في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون، ونحوهم وفي الدور الأخير مسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائماً في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه يجلس القيصر للسفراء وعمل الخدم والعبادات القيصرية، وهناك مقعد الرقص

ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين برايات كل العساكر وبيارقهم، ومقعد التخت كان فيه تختاً عظيماً على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقطيفة الحمراء، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضاً بالقطيفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسبوك من العسجد، وفي خلاله القطيفة الحمراء، ومرصع بالجواهر وأعلاه مرصع بالياقوت الكبير كبراً خارجاً عن العادة، والتاج الصغير مرصع بالألماس ورأس قضيب المملكة ١٤٣/مرصع بقطعة ألماس كبيرة اشترتها القيصرة كترين الثانية من الرومي سافراتسيا بنصف مليون ربل فضة، يعني بمليون وثمانماية ألف ربل حوالة، لأن الربل الفضة في زمان كترين كان يساوي ٣ ربل، ٦٠ كيبك، والآن يساوي ٣ ربل و ٥٠ كيبك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش، لأن الربل يساوي ٥ قروش. والعسكرة القيصرية مرصعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع والمقعد الفيلدماريشالي مزين بصور الفيلدماريشالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسكي وزيمنيكسكي وإبريفانسكي بسبب نصرتهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سنة ١٨١٢م، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض ومقعد جرجيس متسع جداً، طوله ٧٧ ذراعاً روسياً، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركبه لما راح باريس، وفي زمان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر انيتشكي. قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وعائلته وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأبينة، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته:

وما الحلى إلّا زينة لنقيصةٍ يتمم من حُسنٍ إذا الحسن قصّرا
فأمّا إذا كان الجمال موفّراً كحسنك لم يحْتَجْ إلى أن يُزوّرا

١٤٤/وفي أول كل سنة يفتح في المساء ويؤذن لعامة الناس ذكوراً وإناثاً بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفاً، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصاً، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر وبعض مقاعد أُخر كبيرة للغاية، فما ألطف هذه المقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفسح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوف مع أولاده، ويكثر الزحام جداً حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج والشراكسة التاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مآكل، ذهَبَ إلى المحل المعد لذلك وأكل ولا يدفع شيئاً، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ ١٣ سنة، لكن همة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رفعته الأولى، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمر بالسرعة، وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مائة سلم، مع أن هذا ليس في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقاً إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الامبراطورية، أمّا المحال الأُخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزورها.

وفي شهر أيار حين يذهب القيصر وعائلته لتقضية الصيف في تسارسكيا وبترغوف، يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الامبراطورية للتفرج على هذه البنية العجيبة وما فيها من البدائع الغريبة ١٤٥/والذخائر اللطيفة.

وفي سنة ١٧٦٨م، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غير هندستها القيصر اسكنـدر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخـوه القيصر الحالي. وفي طول مدة أيامه والشغـل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصاً القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشِعرى، ولا يمكن لوصف أن يحدها لا نثراً ولا شعراً، بل بالعين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٧٠م ابتدأ قصر المرمر على النيفا وكمل في سنة ١٧٨٣م. وهو يتميز على الخصـوص بأنـه لا يوجـد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائماً المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيفا، وكذلك بني قصر الأمير ترويسكي الذي أسس دننما البحر الأسود، وفتح بندر أوجاكوف وضم القرم إلى الروسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية:

«هو وحده يفهم مقاصدي»، وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى إنه لا يباح لكل الناس دخولها إلاّ بورقة إجازة لئلا تفسدها لعامة، وفي هذا القصر سكن خسرو مرزا حين أرسل سفيراً إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير يوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات يوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفاً له سمت القصر قصر توريد، و كترين الثانية اعتنت أيضاً بإحياء العلوم والصنائع فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيفا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى ١٤٦/يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيفا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبو الهول، جلبا من مصر سنة ١٨٣٢م، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وفي سنة ١٧٨٤م إلى سنة ١٧٩٠م بني على هذا الساحل أكديميا العلوم، لكن أقل علواً، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء ينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكاديميين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل كوفر، وبعضهم بالعلوم الشرقية مثل فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات وتاريخ ونحو ذلك.

ودائماً يسافر الأكاديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما سافر كوفر إلى سيبير محل المعادن، كما سافر بروس إلى تفليس لتحقيق تاريخ الكرج وآثارهم، وفي آخر سني مملكة كترين وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أوّلاً في سوق سنوي مزيناً لحارة الجنينة، مثل اللعبة ومحله صار القومبانية يعني مستودع المال والسلف بالمكسب، وبالجملة فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول المتنبي، حيث قال:

ولو كان النساء كما رأينا   لفضلت النساء على الرجال

ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعاً لبتر بورغ، لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم، وبنى في وسيلي أوستروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال اللقطاء، ١٤٧/وبنى بيتاً لسقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصراً عند جنينة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «أومه»، وزينه ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيراً شارع نيفسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولفار، يعني سطور من الشجر لإظلال المارين، ووضع لجده الكبير بطرس الأول أثراً أمام قصره، وآثر

رومانتسوف في المرج القيصري، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب كديت وأسس أيضاً أكديميا الطب والجراحة، ووضع لكنيسة كران الأساس وكملها بعده وارث تخته، وولي عهده القيصر اسكندر الأوّل الذي بنى الممشى على النيفا أمام جنينة الصيف، ونصب قنطرة ترويسكي قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سوفاروف في سنة ١٨٠١م، ليس بعيداً من قصر المهندسين وقشلة للبحرية واينيستيوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شارع فوسكربسنيكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواوين الأشغال بقبوبه العظيم التي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسنى، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان. وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعباً لخلفه، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر ميخائيل وتياتر اسكندرة باسم زوجته القيصرة اسكندرة فيدوفنا ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريقة منذ سنين، لكن تدورك الخطر وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكارافاني، وأحدث بولفاراً جديداً في طرف حارة ١٤٨/غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب، لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة إليها في ذلك المحل، للاستغناء عنها بالبساتين، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عموداً شاهقاً في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثراً لأخيه اسكندر الأول، وليس له في الدنيا نظير، وهو أطول من ٢٢ سجيناً، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري باسكندرية، والحجر الكبير جلب من بتر بورغ في سفينة مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢م، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢م، في ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤م، حصل فيه الشغل والعمود كان أوّلاً مغطى

بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد «اسم اسكندر» ٣٠ آب سنة ١٨٣٤م، تحفة سنية لهذا العيد الكبير وسحر يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضاً من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسيا تشكر اسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعباناً، وحوله الآن فينارات تولع بالغاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال ميرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصرية ببتر بورغ، وها هي مثنوي:

١٤٩/أزين درسكنتم كهي درستوه — كه يك قطعه سنكست اين ياره كوه

بكاخ سيهرش ستون ساختند — خردخيره كر دركه جون ساختند

جه كغتم بكردون ستون ك رواست — مكر سوى افلاك راه دعا است

ازين به بمطلب نبا شدكواه — كه ما بشد ملك رابرش جلوه كان

بلى دربر هيكل اين ستون — ستون بيستونست وانن بستون

نه وهم شتابان وفكر يلند — برار دور اسرابز يركمند

نظر رابسرعت به يحشنى شودا — به ست يلبس برشده اين نشاره

شند جند جاتابا وجش رسته — بنام يكي ينوونوشين روان

بمهر برادر براوز مهر — جومهر فروزات بطاق سيبهر

برافراخت اين ناموريا دكار — برافرخت اين مشعل روزكار

بسي بك زدكرنشان جنين — نباز دبكيتي بساط زمين[1]

(١) وترجمتها:

=

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين بتر بورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن، وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيفا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كيبك، وعلى مويكة وفونتانكة كانت قناطر نقالة يمكن رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأمّا الآن فعلى فونتانكة ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والأحكام من الحجر الصوان والدرابزين الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان والكل كالنيفا مرصع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه

= تسيطر عليّ الدهشة أحياناً. . . ويمتلكني العجب.
مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل. .
ذاك الذي صنعوا فيه عاموداً لقصر الملك،
عاموداً يحار العقل في كيفية صنعه.
ترى ماذا أقول لو أردت الحديث عن هذا العمود؟
يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء
ولا أوّل على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه.
أجل، إن هيكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون
فعن طريقه يدرك ذوو الحجى ـ دون توهم ـ كيف تلحق الذلة بالأسرى. .
وترى العين على الفور دليل ذلك. .
حين تشهد الصليب وقد رفعته يد الملك.
لأكثر من سبب تم الاحتفال. . وقد جاء تخليداً لذكرى راحل عظيم
بالحب أحيا الأخ ذكرى أخيه، فكأنما بعثت الشمس أشعتها إلى قمر السماء.
لقد أحيا هذا ذكرى أحد العظماء
وأنارت هذه مشعل الزمان
وبفضله وبركته نرى ما نراه. . فما تتيه أرضاً دلالاً على الدنيا

القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة وقدام القيصر سنة ١٨٤٠م، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع انها ١٥٠/محكمة إلاّ أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها، وقيل له: هيت لك، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكباً في كاروصته فتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت	خيلاً مصورة بأحسن منظر
كلٌّ يُقاد بسائس ما غُطيت	بالدرع قامته ولا بمغافر
هذا دليل الخيل والرجل التي	قويت بلا خوف جميع الأعصر
من يقوَ إن لم يرضَ مالك أمرهم	أن يدخل الساحات أو من يجسر

وفي سنة ١٨٤٢م شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكناً في بيت أمام القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال الشاقة المتوالية من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاه زادة الأمير الكبير مارية نيقولاونا الديني هو أيضاً من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة لتتسع ساحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائلة هناك بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، وفيه فصول.

الفصل الأول

١٥١ / اعلم أن عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحسن معاشرة الناس، خصوصاً من مدة ما تقدموا في التمدن والعلوم، وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، ويميلون إلى الفخر والكبر، قال العلاء في أخلاق طائفة الروس: «موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون، وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة، وقلة الصلاح، وكثرة الأباق». وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التاتار حيناً، لكن الآن انعكست القضية، وصار التاتار مذعنين لهم ومن رعاياهم، وليس الناس عندهم رتبة واحدة، بل مراتب:

الأولى: الأعيان، وهذه الرتبة متوارثة، فابن أحد الأعيان يعد منهم، وأصحاب هذه الرتبة يتميزون جداً، بحيث يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، ثم إن هذه الرتبة تنقسم إلى قسمين:

أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمان بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب الثالث.

وأعيان: وهم من بعد بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب السادس.

مثــلاً في تربية بنــات الأعيان في ديراسمـوليني، يشتـرط إن لم يكن إذن مخصوص من القيصر، أن يكون من أعيان الأعيان، وإذا دخل أحد الأعيان طوعاً في النظام دخل مثل تحت ضابط، وبعد سنتين يصير ضابطاً.

الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون ونحوهم الذين أنعم عليهم القيصر بالنشانات، فإذا نالوا رتبة من القيصر عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلاّ في اختلاف الدين، فيمنع دخـول الـروس في ملك المسلم، كمـا أن العبد المسلم يمنع شرعاً دخوله في ١٥٢/ملك النصراني ومخالف الدين.

الثالثة: التجار لا يعدون في الروسيا من الأعيان، فالتاجر ولو ملك ملايين لا يعد من أهل هذه الرتبة، إذا تزوج واحدة من الأعيان حط رتبتها، وصارت تعد من التجـار، لأن الـزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلاّ بسبب غناه،\كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلاّ لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش ولا يبالون بعقد الكفاءة، ولله القائل:

قالــوا الـكـفــاءة سنــة فأجبتهم إن الكفــاءة في يســار الــدرهم

الرابعة: أولاد البلد وإذا ترقوا إلى التجار ونزلوا إلى النظام فلهم حكمهم.

الخامسة: الفلاحون إذا أخذوا في النظام، فلهم حكمهم، وإلاّ فلا يترقون إلى الرتبة الأولى.

الســادســة: العسكـر، لكن إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان، وذلك أنه لا بد أن يخدم ١٥ سنة، فإذا كان حسن السلوك ربمــا ترقّى إلى مرتبـة تحت الضــابط، ثم إلى مرتبـة الضــابط، ١٥٣/ومن خدم ١٥ سنة له الخروج من النظام إن أراد.

السابعة: الأرقاء، ولا يجوز لكل أحد شراء الأرقاء كما عندنا، بل بشروط أن يكون المشتري من أعيان الروس، وأن يكونوا تبعاً للأرض، فليس للأرقاء سوق يباعون فيه، إنما بيعهم تبعاً للأرض، وتارة يباعون بالاستقلال، ويجوز إعتاقهم، ومنهم من يشتري نفسه كالمكاتب، ولا يصير الرقيق، ولو بعد العتق من الأعيان إلّا إذا صار عسكرياً وترقّى، ثم إن الأعيان لا بد لهم من التربية والتعليم الذي يكتسبون به الرتب. فإذا تعلموا في المدرسة الكبرى، ونحوها حتى وصلوا إلى درجة «كانديدان» يعني النجيب، يكونون من الصنف العاشر، هذا إن أحسنوا الجواب في البحث، وإن قصروا قليلاً فيعطون درجة التلميذ المجتهد، وإلّا فلا يستحقون شيئاً، وإن تعلموا في المدارس الصغيرة لا يستحقون هذه الرتبة، ويخدمون بلا رتبة حتى يعطى لهم رتبة، وأوّل المراتب الصنف الرابع عشر، ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات، وكذلك أولاد التجار إن تعلموا في المدرسة الكبيرة، وبلغوا رتبة النجيب، ثم النجيب إذا اجتهد وكتب شيئاً في العلوم، وعمل بحثاً في العلوم، وناقشه العلماء، وأحسن الجواب وصل إلى رتبة مجستير، يعني «عالم»، فيكون من «الصنف التاسع»، ثم إذا اجتهد أيضاً، وكتب أيضاً، وعمل بحثاً، ونوقش فيه ومَهَر وصل إلى رتبة دوكتور، يعني «فاضل»، فيكون من الصنف الثامن، ثم إذا خدم ترقّى بالخدمة إلى الصنف السابع، وهكذا، «والفاضل» يمكن له أن يكون مدرّساً أوّلاً، يعني عادياً، وثانياً يعني خارجاً عن العادة، هذا كله في الرتبة المكتسبة من التعليم، وقد يصل النجيب بواسطة الخدمة إلى هذه المراتب، فيكون جنرالاً، وإن لم يكن عالماً ولا فاضلاً، وأمّا وصول ١٥٤/غير النجيب فيمكن، لكن لا كالنجيب إلّا نادراً، والنشانات يعطيها القيصر بعض الوزراء لمن يستحقها بسبب التقدم والتمييز، وهي كثيرة، منها نشان ستانيسلان وحنه وفلاديمير، وشريط الأول بحاشية بيضاء، والثاني بحاشية صفراء، والثالث بحاشية سوداء، وكلها حمر، والشريط للرتبة الأخيرة صغير يعلق على الصدر، وللرتبة الأولى طويل يعلق كالحمالة، ولا يعطى إلّا للجنرالات وللرتبة الوسطى كالقلادة في العنق، وقد

أنعم عليّ القيصر بالنشانين الأولين، وقلد بهما عنقي بسبب امتياز التلاميذ في البحث، وقلت حين قبلت الثاني مورّياً:

إنّــي رأيتُ عجــبــاً
في بتــر بورغ وإنــهْ
شيخ من الـمـسـلمين
يضم في الصـدر حَنـهْ

وقد أنعم عليّ القيصر أيضاً في البحث الثالث بخاتم مرصع بالألماس الغالي، وفيه أوّل اسمه العالي، وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشـانـات المعـطاة للمسلمين، فأقـام مقـامها صورة النسر هذا، وقد قلدنا الأوروبيين في إعطاء الرتب والنشانات للمستخدمين، لكن إلى الآن ما فعلنا ذلك مع «التلاميذ والمعلمين»، فأي مانع من ذلك، بل المقتضي موجود وهو تحريض التلاميذ على التعليم، مثلاً إذا فرغ الصبي من التعليم في المكتب، ودخل في المدرسة لتعلم العلوم، فبعد أربع سنين إن شهد شيوخه بالنجابة سميّ «نجيباً» ولا بأس بعمل بحث لذلك، وإعطائه ثبتاً وإجازة. لكن في كاغد منشن، ثم إن استمر فبعد سنة مثلاً أو سنتين يعطى رتبة العالم ثم الفاضل، والفاضل له رتبة المدرس الأول والثاني، وغيره رتبة المعلم أو المعين، ثم ١٥٥/حيث نوعنا المراتب، فلِمَ لا نخص كل رتبـة بلفظ، فنعطي مثلاً للجنرالات لفظة الجناب، وللوزراء لفظة السعادة، والشاه زادة وعائلة السلطان لفظة السيادة، وللسلطان لفظة الأبهة، ونحن إلى الآن ما فعلنا ذلك، بل نقول لكل الناس حضرة الجناب العالي، وتستعمل لفظة الحضرة التي تستعمل حتى في جانب الله والرسول، ونبتذلها جداً كأننا نظرنا لقول القائل:

إذا شوركـت في وصـفٍ بدون	فلا يلحــقــك عارٌ أو نفــورُ
ففي الحيوان يشتـرك اضـطراراً	أرســطاليس والكلب العقــور

لكن هذا شيء آخر، لأننا لا نقول لأرسطوطاليس حيوان، ولا يحسن أيضاً أن ننظر لقول الآخر:

العبد عبد وإن تسامى   والمولى مولى وإن تترَّك

لأن هذا في تسامي العبد نفسه، وتنزل المولى وتواضعه، وأمّا من طرفنا فيليق أن لا نرفع العبد فوق مقامه ولا ننزل المولى عن رتبته، إنما المقام الذي نحن فيه من باب قول القائل:

اجعل لكل مكان ما يناسبه   فإنّ للزند حُلياً ليس للعنق

الفَصل الثاني

في ملابس الروس

اعلم أن ملابسهم القديمة الباقية في عوامهم إلى الآن مشتملة على قميص افرنجي والغالب أنه من الشيت، لأن العوام يحبون الألوان. ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة محزقة، ولقسسهم جُبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر أو بنشات السفطات، ولكن من منذ مدَّن بطرس الكبير الروسيا، صارت ملابسهم كملابس غيرهم من الأوروبيين، فيلبسون الأقمصة البيض، ويضعون على الصدر ١٥٦/فوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيات مكوية، وتارة يفصلون القميص ويجعلون على صدره طيات، فيكون ذلك ساتراً، ثم الصدريات المفتوحة، ويتأنقون في تفصيلها حسب الكم، ثم السروال الضيق ثم الجبة الافرنجية القصيرة، وفي مراسم التكلف هذه الجبة مقطوشة الذيل من الطرفين، وطوق الصديري والجبة مرتفع فوق القفا بسبب البرد وللنظام ملابس مختلفة على حسب اختلاف خدمهم، فالضباط ومن فوقهم يضعون على أكتافهم قرصاً من القصب الأبيض أو الأصفر، ويلبسون السيوف، وأمّا أرباب القلم فلا

يلبسون السيوف، إلاّ في مراسم التكلف، وكذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبتهم، وبعضهم من يلبس البدل المقصبة كلها، وبالجملة فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، والرواح إلى الكبار خصوصاً رؤساء الشخص، وعند الذهاب إلى مجمع الأعيان حيث الرقص ويسمى ذلك بدلة الوَلْبَة، وأمّا البرانيط فأنواع، المسنمة التي فوقها ريش، أو بلا ريش، وهذا لبس القيصر، والكبار أرباب السيف، وكذا لبس أرباب القلم في التكلفات، وأمّا لبسهم في غيرها، فالبرنيطة السوداء المدورة العالية بحواف عراض قليلاً، وهناك أنواع أخرى خصوصاً للنظام بعضها مستطيل وبعضها مربع، وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة، وحدث منذ بعض سنوات للنظام نوع آخر من البرانيط فوقه شرابة من شعر الخيل، والآن كثيراً لبسه حتى إني رأيت القيصر بنفسه لبسه، ويربطون على العنق منديلاً أسود في الغالب، وخصوصاً في الشتاء، وتارة من لون آخر وخصوصاً في الصيف، وأبيض في التكلفات، وهذا لا بد منه في ١٥٧/هذه البلاد لبرودة الإقليم، ولما وصلت بتر بورغ كان وقت الصيف، فصرت بلا منديل على العادة، فلما أقبل البرد لم أقدر على الخروج فربطت المنديل على الرقبة وتارة منديلين إذا اشتد البرد، وقلت في ذلك مضمناً بيت المتنبي:

وما حيلتي في بتر بورغ وقطرها — وفي عنقي غل له ألجأ البرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى — عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ

لكن أرباب السيف يستغنون عنه بالقَبَّة المستطيلة، وكذلك في أيام الشتاء لا بد من لبس الفراء خصوصاً للغرباء لقساوة البرد، وقلت موريّاً:

واصلتني يا بدر حتى كان لي — بلوغ وصلك في الدجا آمال
لِمَ تفتري في موعدي فأجابني — الافتراء ببتر بورغ حلال

وأما النساء: فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة والألبسة، ثم الإزارات المربوطة على الوسط، وهي كثيرة، ثم الفسطان، ويجوز لهن كل الألوان

والتنوع على حسب النسيم، ويعملون للفساطين وشاحاً يسمى الكرسيت، وهي خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر، وتارة يتزنرن، وتارة يفصلن الفساطين واسعات الجيوب، بحيث يرى عنقهن لكن يضعن على ذلك منديلاً أو شيئاً رقيقاً شفافاً من الشاش حسن الصنع مشغولاً بالطارة أو الإبرة، وفي الرقص لهن فساطين بلا أكمام، فذراعهن ونصف صدرهن مكشوف، إلّا أنهن يلبسن الكفوف، وهذا باب واسع الذيل، ويجر كثير السيل، فالكسم في كل وقت يتغير، ويكتب ذلك في الجرنالات، حتى أن للكسم جرنالاً مستقلاً فيه صورة امرأة لابسة بغاية التأنق، أو رجل، وهذا كله يأتي من باريز، ويتبع ذلك نساء الأوروبا، وتارة تلبس ١٥٨/كبار نساء الروسيا السرفان، وهو لباسهم القديم، والفلاحات يلبسنه وهو معلق بأشرطة، لا صدر له، لكن سرفان الكبار مرصع باللؤلؤ أمام، ولهن برنيطة عريضة من فوق مدورة، ومن أسفل أقل عرضاً، كذلك مرصعة باللؤلؤ يلبس ذلك في التكلفات الكبيرة، مثل الأفراح القيصرية، والولائم الامبراطورية، وأمّا نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفان، وبعضهن بالفسطان، وبعضهن يلبس فوق الفسطان مثل الصديري، وبعضهن يتعصبن بالمناديل، وهذا باق حتى عند نساء التجار إلى الآن، لكن الأكثر يقلدن الأعيان، وقد رأيت مرة في دير اسموليني بنات الأعيان لابسات السرفان والبرنيطة الروسية، وكان ذلك أسبوع الميلاد.

وفي هذه الجمعة على العادة القديمة تجتمع العذارى، ويأخذن طبقاً ويضعن فيه ماء، ثم يغنين ثم يعطين الخواتم للحاضرين يزعمن أن ذلك يدل على البخت، وتارة يبذرن الشعير أمام البنات، ويضعن فيه خاتماً، ثم يرسلن ديكاً يلقط الحب، فإن نبش الديك وأخرج الخاتم، فمَن كان أمامها فإنها تتزوج في ذلك العام، إلى غير ذلك من الأوهام القديمة، وفي هذه الجمعة يمسخون أنفسهم ويغيرون زيهم، فبعضهم يلبس وجه شخص قبيح الصورة، وبعضهم صورة حمار أو عفريت إلى غير ذلك، ثم يدورون الحارات، ومن حيث أن لبس الفقير مخالف للبسهم بعضهم يظنني أحد الروس الممسوخين، لأن هذه الجمعة يغيرون الملابس أيضاً،

ويفعلون ذلك في الرقص أيضاً، ويسمونه المسخرات كما يأتي، وأمّا الذقون فالأعيان وغالب التجار يحلقونها، والقسس والعوام وبعض التجار بلحاهم وكثيراً من لحاهم، وأمّا الشوارب فتحلق غالباً إلّا النظام وأرباب السيوف، **١٥٩**/وكذلك العارضان وما تحت الذقن يجوز فيها الإبقاء، والعادة الآن بين الفرنساوية إبقاء الذقون، والتجار لا يخضعون، وكذلك التاتار، فكأنهم بلغوا أمنية الشيخ أبي بكر الشيرازي حيث قال يتبرم بشبابه وكان خنق التسعين، ولم تبيض له شعرة:

إلامَ وفيمَ يظلمني شبابي ... ويلبس لمتي حلل الغراب
وآمل شعرة بيضاء تبدو ... بدوّ البدر من خلل السحاب
وأدعى الشيخ ممتلئاً شباباً ... كذا طمعاً يُعلل بالسراب
فيا شوقي هناك إلى مشيبي ... ويا خجلي هنالك واكتئابي
ألا يا خاضب الشيب المعنّى ... أعنّي في الشباب على الخضاب

فكافور المشيب أجلّ عندي ... وفي فوديّ من مسك الشباب
وأين من الصباح ظلام ليل ... وأين من الرباب دجى ضباب
ألا مَن يشتري منّا شباباً ... بشيب واسوداداً بأشهبان

ويميل له قول أبي الطيب المصعبي في ذم الشباب:

لم أقل للشباب في كنف الله ... وفي ستره غداة استقلّا
زائر لم يزل مقيماً إلى أن ... سوّدَ الصحف بالذنوب وولّى

أين هذا من قول الآخر:

أليسَ عجيباً بأنّ الفتى ... يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ له موجع ... وآخر مغد معد إليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب ... فليس يعزيه خلق عليه

وأما الفرس فيخضبون ميلاً لقول الخشنامي :

أقــول لمن يعــد الشيب نوراً ويزعــم أنــه يكــســو وقــارا
أحب من الــوقــار إليّ شعــر يحــاكي لونــه سبجــاً وقــارا

ويعضده قول الآخر: ١٦٠/

لو أن لحية من يشيب صحيفــة لمعــاده ما اختــارهــا بيضــاء

ولأبي الفرج ابن أبي سعد بن خلف، وهو كما قال صاحب الخريدة من أحسن ما يروى في معناه:

وأنكــرَ جاراتي خضــاب ذوائبي وهــن به زُيّنَ بيض الأنــامــل
فواعــجبــاً منهن أنكــرن باطــلاً عليّ ولــم يخلبن إلاّ ببــاطــل

وأمّا شعر الرأس فالرجال يقصرون، وفي تعهدها لا يقصرون إذا هم مكشوفو الرؤوس في المجالس، وأما النساء فيرسلن من شعورهن المقاصيص، ويجمعن غرائر الشعر بمشط في وسط الرأس، ويتعهدن ذلك حتى العجائز:

وقــد شمــطت ذوائبهــا وليست على أمــرٍ سوى قتــل العقــاص

ولا يرسل الشعور على الظهر إلاّ الفلاحات، وتارة يضعن بعض شيء للتحسين كشريط أو دبابيس كبار مذهبة أو نحو ذلك، والمتزوجات يضعن على الرؤوس طاقية رفعية بغاية الإتقان، وللنساء شمسيات قصيرة في غاية البداعة من الربيع والصيف يقيهن حر الشمس، وأمّا الرجال فلا يتخذن إلاّ الكبيرة للمطر، ومما قلت في بعض العذارى:

ولم أنسَ لمّــا أن تبسّم ثغــرهــا ومــنــت بتــوديع بغــير سلام
شقيقــة بدر إن يك البــدر غيرهــا وحــلوة ثغــر رق فيه نظامــي

وقـد رفعت بالشمس فاتخذت لها حجـابـاً ومـا تنفـك دون ملام
طويلة شعـر قصـرتـه بمشـطهـا فهـا هو إكليل الجمـال وسـامي
فؤادي كخـديهـا وحمـر شفـاههـا ألـسـت ترى أن الـجـميع دوامي
مورّدة الـخـدين في زمن الشتـاء فكـيف بيوم في الـهـجـيرة حامي

وفي المـدينـة مخازن لتهيئة هذه اللوازم، ففيها من الأقمشة النفيسة كل ما يحتاج إليه، وخياطون للتفصيل، وشرح هذا الباب غني عن ١٦١/التفصيل حتى يوجـد كثير من المـزينين لإصلاح الشعور وقصها وتقصيرها وتزيينها على حسب الذوق، وإذا لم يكن للشخص شعر ولا أسنان، وضع له شعر وأسنان عيرة بغاية الإحكام حتى لا يكاد يتميز من الطبيعي، ولله من قال:

قالت أراك خضبت الشعـر قلت لهـا خضبتـه عنـك يا سمعي ويا بصـري
فقـهـقـهـت ثم قالـت إنّ ذا عجـب تكـاثـر الغش حتى صار في الشَّعـر

الفَصْل الثالث
في دين الروس

قد سبق أنهم كانـوا عبـدة أوثان حتى تنصروا في زمن فلاديمير على طريق الروم، لكن المطران ليس الرئيس المتوحد، كما كان البابا في روما، بل الرئيس الديني القيصر كالسلطان بين المسلمين، وتحته ثلاثة مطارنة وعدة أساقفة ومشورة الـرهبـان، وطـريقـة الروم التي تدين بها الروس تخالف طريقة اللاطينيين بفرق ضعيف، فرق الفئتين المتحدتي الدين، وذلك أن الروم يعتقدون كاللاطينيين سواء أسـرار التجسيد، وتخليص عيسى العـالم من الخطايا في اليوم الآخر، والثواب والعقاب بعد الحياة على الخطيئة الأصلية، وعلى العفو اللازم، والمعروف إنّما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث، فاللاطينيون يقولون: إن روح القدس ينبعث من أب وابن، والروم يقولون إنه من أب بواسطة ابن، ولأجل الفرق بينهم

وبين القاثوليقية اليونانيين يصلبون ضامين الثلاثة الأصابع الأصلية، يعني ما عدا الخنصر والبنصر من اليد اليمنى جاذبيها من الصدر إلى الكتف اليمنى، ومنه إلى الكتف الشمال. والتكريز عند الروس بلسان الصقلب، كما أن الوعظ عند الإسلاميين بلسان العرب، وهو مصحوب بموكب وزينة عظيمة وشموع موقودة، والأواني في الغالب ثمينة مذهبة ومرصعة بالجوهر والصور والتماثيل من اللوازم عند الروس في الكنائس، وفي البيوت بحيث إن الكنائس مملوءة بها، وتارة يوجد حتى في الأسواق وفي كل بيت في أوضة مخصوصة صورة العذراء والمسيح مطلية بالذهب أو الفضة أو مرصعة بالجواهر على حسب الغنى والفقر، وتارة صور أخرى والداخل يتوجه إلى الركن الذي فيه الصورة، ويسلم عليها أوّلاً. بخفض الرأس والتصليب مراراً، ثم على أهل البيت وكذلك عند الخروج للوداع، وكذلك عند المرور على الكنيسة أو الصور التي في الأسواق لكن هذا بين العامة والتجار، وأمّا الأعيان والأكابر فلا يفعلون، ولذلك المعري نظر حيث قال:

ما النــاس إلّا اثنــان إمّـا جاهـل   متــديّنٌ أو عالِــمٌ لا دينَ له

وعند الصور قنديل دائماً مولع أو شمعة موقدة ليلاً ونهاراً إلّا الفقراء، فليلة الأحد والأعياد، وأيامها وكنائسهم موضوعة، بحيث يكون القسيس في المحراب متوجهاً للشرق، والنواقيس في العادة في برج عالٍ كالمنارة، أو في محل منفصل عن الكنيسة.

وفي وقت التكريز كل الناس تقف والرجال تقلع البرانيط، وكثيراً ما يصلبون، بل ويقفون ساجدين على الأرض، ويكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد، ويوم اسم الشخص أو ولادته، وفي أيام الصيام خصوصاً الكبير الذي قبل الفصح، وفيه يستغفرون من الذنوب بأن يقر المذنب بذنبه للقسيس فيأمره بالسجود في بيته بقدر الذنب صغراً وكبراً، ثم يسقيه خمراً أحمر كأنّه دم المسيح، وخبزاً، وفي ١٦٣/ أيام الصوم الكبير والجمعة الأولى والسابعة يمتنعون حتى من السمك والبيض والسمن، بل الزيت الحار ونحوه، وبعضهم لا يلتزم لكن أكثر العامة

والفلاحين يراعونه فلا يأكلون لحماً البتة، وما ألطف قول ابن حجاج:

جفـاني اللحوم وهو شقيق روحي ... فمـن يعـدى على ذاك الـشـقيق
كأن الـلحـم في صوم النصـارى ... توهـمـنـي بزعـم الـجـاثـليق

الفَصْل الرابع
في الزواج

اعلم أن الروس من زمان بطرس الكبير إلى الآن كسائر الأوروبيين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه (فحينئذ) يسهل على من يريد التزوج اختيار من شاء، وتارة بواسطة الخاطبة خصوصاً عند العوام، ومن حيث إنه لا طلاق لا يقنع الإنسان بمجرد النظر بل لا بد من معرفة الطبع فيصطحبان بغاية الأدب وينظران بعضاً في المجالس، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمنهم مَنْ يقنع بأن المرأة تحبه بزمان قصير، ومنهم من لا يقنع، وعلى كل حال، فإذا حصلت المحبة من الطرفين التي يسمونها العشق، أو كان هناك غرض آخر سألها التزوج بها، فإذا قبلت سأل بعد ذلك أهلها ثم يشرطون الشرط في البيت (وحينئذ) يصنع لها خاتم ذهب، ولنفسه كذلك، وتسمى حينئذ خطيبة، ومن ذلك الوقت يجيء كل يوم عندها ويروح حيث تروح، ثم يعين وقت للعرس وحينئذ يذهبون للكنيسة فيسألها القسيس أوّلاً هل رضيت بهذا؟ فتقول: نعم، وفي هذا الوقت يتوجان، وإن لم يكن أب ولا أم اختير أب وأم يسميان أبوي الزواج، ويحضران في الكنيسة مع العروسين، وكذلك يختار شاب يسمى مهياص الفرح، ١٦٤/وهو الذي يمسك تاج العروسة على رأسها في وقت غناء القسيس، ويبدل الخاتمين ثلاث مرات بأن يضع خاتمها في أصبعه وخاتمه في أصبعها ثم يدور بهم في الكنيسة مراراً، بعد فراغ الغناء يهنئون العروسين ثم يرجعون البيت ويشربون خمر الشامباني مع الحلاوة، وربما رقصوا والنساء المعزومات للعرس يحضرن في غاية التبرج،

وكـذلـك العروسة وفستانها مخيطة فيه أزهار صناعية، وعند بعض الناس تتفاءل البنات غير المتزوجات بأخذ شيء من هذا الزهر لنفاق بختهن، وبين حاضرات الفرح ربما تميز بعض الحسان، وجذبت نحوها الأنظار حتى يظن من لم يعرف الحال أنها العروسة.

وكم في العرس أبهى من عروسٍ ولكن للعـروس الـدهـرُ ساعَـد

والرواح والرجوع في عربات الملك أو الكراء.

في اليوم الثـاني يذهب العـروسـان ـ ويسميان بالروسي «الشابين» ولو كانا كبيرين ـ إلى المعـارف والأحبـاب لزيارتهم وشكـرهم، وربمـا دعوهم إلى ليلة مخصوصة للرقص عندهم، والغالب أن الزوجة أصغر بنحو عشر أو خمس عشرة سنة، وتارة تكون الزوجة أكبر، وتارة أصغر جداً.

وإذا كان أحـد الـزوجين غير روسي ضوعف العقد، فيحضر القسيس غير الـروسي، ويثبت العقـد بعد القسيس الروسي، وهكذا مع غير الروسي، حيث اختلفت المـذاهب، وقـد حضـرت مرة زواج نيمسـاوي قاثـوليقي مع نيمساوية لوتيريانية، فعقد العقد أوّلاً في الكنيسة القاثوليقية قسيس قاثوليقي، ثم بعد الرجوع في البيت قسيس لوتيرياني، ولا يجوز لأحد من مدة الحياة الزواج أكثر من ثلاث مرات، فالعبارة مسكينة، نعم يجوز التزوج برابع إن كان يهودياً تنصر.

وفي مدة الصيام لا يجوز التزوج.

وأمّـا الـمـهـر فتـعــطيه الــزوجــة وكثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب ١٦٥/زوجـاتهم فالحسن ليس جالبـاً للعشق أقـوى من المال، فالقباح الغنيات يعشقن ويتزوجن مثل الحسان الفقيرات:

كتنفس الحسنـاء في المرآة إذ برعـت محـاسنهـا بغير زواج

فإن اجتمع الحسن والمال قوي الجاذب غير أنه خطر، ولله در إمامنا الشافعي، حيث قال «ما سلمت ذات جمال قط، فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وإذا تزوجت المرأة سميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات يظهرن في المجالس ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يعشقن ويتزوجن وربما نشأ من هذه الواسطة غرور كثير، تارة يظهر أحدهما العشق بلا حقيقة ثم يترك، وكم من خادع وخادعة وداهية وباقعة، وتارة يكون الرجل كثير الملاطفة، فيظن أنه عاشق وأنه يريد التزوج، ثم يتبين الحال بعد وقوع المرأة من العشق في أوحال، وكل هذا لغير المزوج، إذ المتزوج معلوم حاله، فملاطفته للنساء من باب الأدب العقيم، وتارة يكون له غرض وخيم، وأمّا المتزوجة فيلاطفها الرجال أدباً، وربما جذبت عقولهم فيعشقونها، وربما عشقتهم خصوصاً إذا رغبت عن الزوج، وكم من نساء متزوجات لفظاً مطلقات معنىً يعشن مفترقات عن الأزواج مع العشاق، وكذلك الأزواج، وكثير من يفعل ذلك سرّاً، وربما تبعت الزوجة العشيق إلى بلاده، وتركت الزوج مُنْشدة بلسان الحال:

قاطعته وخلعت من يده يدي　　　وتلوت لي وله بأن نتفرّقا

وأمّا المعيشة بلا زواج فكثيرة، وربما حصل بعدها الزواج، وعند النيمساوية يسهل الفراق، فلا يندر وجود امرأة تفترق من زوجها ثم تتزوج آخر، وأمّا زواج التاتار القاطنين في الروسيا، فكما المسلمين، إلاّ أنهم يدعون الحاضرين للوليمة، ويعقدون العقد قبل الطعام، فيقرأ المُلاّ خطبة النكاح، ١٦٦/ثم يعقد العقد مع وكيل الزوجة الثابت وكالته بشاهدين والزوج، ويعين المهر الذي يعطيه الزوج، ثم بعد ذلك يأكلون الأكل. ويرسل من طرف العروسة بعض الهدايا لبعض الحاضرين الذين يرسلون لها النقطة في مقابلة ذلك، وندر الطلاق بينهم، وإن كان جائزاً، اللهم إلاّ لسبب يقتضيه.

الفصل الخامس

في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن

إذا ولد لشخص مولود أحضر القسيس وأعطى للمولود اسماً، كما يريد أهله وأخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذلك بمدة يعمد في البيت أو الكنيسة ثم يحضر طشت فيه ماء فيقدسه، ثم يضع المولود في الماء، ويأخذه منه الشبينة (يعني أم التعميد) وتلفه في قميص جديد وطاقية، وتعطي للقسيس منديلاً يمسح به يده، ويأخذه ويحضر أيضاً أبو التعميد، وهي يعطي الأجرة للقسيس، ويشتري للمولود صليباً يلبسه، وكل الناس في أعناقهم الصلبان إلى ذلك الوقت، خصوصاً النساء، لكن الكبار لا يظهرونه، ثم بعد ذلك تدور الشبينة بالمولود ثلاث مرات وفي يدها شمعة، وكذلك أبو التعميد، ويغني أثناء ذلك القسيس ويدهنه بالزيت المقدس، ثم يحيون الليلة بالرقص والشراب ويحدث بين أبي التعميد وأمه لُحمة كلحمة النسب بحيث يمتنع التزوج، وكذلك بينها وبين الأب والأم والغليونة، ولهذا تدعو معمديها بأبويها، ويسمون المولود بأسماء القديسين مثل بطرس ومريم، ويعمل لهذا الاسم يوماً يحيا كل عام، وهو اسم مولد ذلك القديس مثلاً، يوم مولد مار نقوله سادس كانون الأول، فإذا سمي المولود نقوله على اسمه كان عيد اسمه كذلك، ويوم الولادة يشهر أيضاً كل سنة ويجيء الأحباب والمعارف والأقارب للتهنئة. ١٦٧/ وربما عملوا ليلة ورقصوا، أو وليمة وشربوا الخمر على صحة صاحب العيد، وهذا يختلف باختلاف الناس. وإذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، ويأتي أيضاً قبل خروج الروح ليلقنه، ثم يغسل ويكفن، وكفنه ثياب الحياة بعينها، فيلبسونه مثل ما هو حي حتى الجزمة، ويوضع ووجهه مكشوف في تابوت خشب، ويوقدون حوله ثلاث شمعات اسكندراني، وعنده في طول هذه المدة قسيس يقرأ عليه، وكل يوم يجيء القسيس الكبير ويصلي عليه، ولا يدفن قبل ثلاثة أيام

لاحتمال الحياة، ففي اليوم الثالث أو الرابع المعتمد للدفن تُهيأ الكنيسة وتغطى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود، وكذلك تهيأ عربة معدة لذلك بالجوخ الأسود والخيل التي تجرها تغطى بالجوخ الأسود، ويصحبون جنائزهم بالنار، فيمسك القسيس شعلة من نار، ويختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزاد لهم، وتغطى العربة بقبة جميلة، ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوباً بالمشيعين، وتارة يحمل التابوت يوم الموت، ويوضع في كهف الكنيسة إلى يوم الدفن، وتطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس ويغني القسيس والشموع موقودة، ثم بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب، ويضعونه فيها، وبعض المشيعين يمشي قليلاً، ثم يركب عربته وبعضهم يركب وبعضهم يمشي إلى الجبانة، وهناك يدفن، فيأتي قسيس ويرش عليه عند إلقائه بتابوته التراب، ويرش عليه الحاضرون ثم يخلونه، والعادة أن تعمل وليمة عند القبر للمشيعين فيأكلون ويشربون الخمر على روحه، ويطبخون الأرز بالزبيب، وكل مَنْ مرّت عليه الجنازة يقلع البرنيطة، وكذلك المشيعون تارة، وربما وضعوا في الطريق إلى الكنيسة شيئاً أخضر من فروع الشجر ومقبرتهم مشتملة على قبور محكمة البناء ١٦٨/ بالأحجار، وفي الغالب أنها طويلة كالعمد، وبعضها مدور، وبعضها مستطيل، وبعضها مسنم، وبعضها مربع، وفوقها الصليب بخلاف القرى، ولا يظهر من قبورها إلّا الصليب فوقها، ويعمل للميت أثر وهو حجر من الرخام يكتب عليه اسمه وتاريخ ولادته وموته، وربما يتأنقون في ذلك ويكتبون إشعاراً، وللتتار قرافة مخصوصة منعزلة عن مقابر الروس، وإذا مات أحد لبس أقاربه عليه الحداد مدة معلومة عندهم، فالنساء يلبسن الفستانات السود والبرانيط السود، ثم الخمار الأسود بحاشية بيضاء، وأمّا الرجال فمن حيث إن لبسهم أسود يلفون على البرانيط حريراً أسود، وفي مدة الحداد لا يرقصون إلّا أنهم يحضرون مجالس الرقص والتياتر، وتارة تلبس بعض النساء في مدة الحداد ثياب الزينة إذا ذهبن إلى أعياد بعض

الأقارب ثم يقلعن ذلك وبالجملة فالتكلفات في هذه البلاد كثيرة، والرسوم غزيرة ، ولكل شيء قانون عنده يقفون وله يقفون.

الفصل السادس

في أعياد الروس

أولها: عيد أوّل السنة، يبتدىء أوّل كانون الثاني، فيه يذهبون لزيارة الرؤساء والكبراء والمعارف، ويكتب الشخص اسمه إذا ذهب إلى رؤسائه، ولم يرهم ويعطي ورقة الزيارة المطبوعة باسمه لغيرهم، وكانت الروس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدنيا، والسنة الجديدة من أوّل آذار في وقت الاعتدال إلى الربيعي مثل الفرس المبتدئين سنتهم من النوروز، واستمر ذلك إلى القرن الخامس عشر في إمارة وسيلي دميتريفيج أمير دونسكوي، فقواه المطران كبيريان على تغيير أوّل السنة اتباعاً للأورام، ١٦٩/ ومن ذلك الوقت ابتدأت السنة الجديدة عند الروس يوم مار سيمون مقضي الصيف الذي يشهر أوّل سنتابر في الخريف، لكن لم يزالوا على عدد القرون من أوّل خلق الدنيا، فكان أسلافهم في ذلك اليوم في كل سنة يشهرون فراغ الصيف ودخول أوّل السنة الجديدة، ويبتدىء التعبيد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصبح في كنيسة التصليب الكبيرة، فيخرج المطران إلى الميدان مصحوباً بالقسس والصور والصلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس، ويتم رسم الماء المقدس والصلاة، ويقول: بارك اللهم في العام الجديد بإفاضة الإحسان والصلح، ويصلي القيصر وسكان موسقو بالخشوع ويسجدون عند غنائه «خلص اللهم عبادك وبارك في خليقتك»، ويرش المطران القيصر والناس بالماء المقدس، ويهنىء القيصر رعيته الأمناء بقدوم السنة الجديدة، ويسمع بغاية البشاشة تهنئة رعيته المتمنين له بقلب واحد، الصحة ونعمة الله، ثم تقام الصلاة والناس يتماشون في داخل الكنيسة، وبعد الصلاة كلهم

يسرعون إلى أقاربهم الكبار ويهنئون بعضهم بعضاً بمقدم السنة الجديدة والسعادة القشيبة، وبعد الغداء يذهبون إلى البيوت، ويتمنى بعضهم لبعض بالأمنيات الكبيرة أن يعيش إلى أمثال هذه السنة الجديدة على عادات الآباء والأجداد الموصى بها، وعلى هذا استمر الأمر إلى سنة ١٧٠٠م نحو ثلاثة قرون، فظهر في الروسيا قيصر عجيب بطرس الأول الذي عند اطلاعه على الأوروبا واستحسانه معيشتها الجديدة بالراحة وتمدنها الساحر للنفس والعقل غير المعلوم للروس بعد عزم على تمدين رعيته وإزاحة كل ما يبعدهم عن الأوروبيين بالكلية، أو تخفيفه، وما يميزهم عنهم في الأفكار والتثبت بالأوهام ١٧٠/القديمة الموجبة لاحتقار التمدن الأوروبي وكراهته، وقطع هذه العلائق أبطل كثيراً من العوائد التي من جملتها حساب السنين الذي غيره بطرس، وصدر عنه أمر ١٩ كانون الأول ١٦٩٩م، أن من هذا الوقت يكون رأس السنة من كانون الثاني سنة ١٧٠٠م في الأوامر والفرمانات، وكل الأمور والمعاملات موافقة لنصارى الأوروبا، وأن يكون من الميلاد، ولا من خلق العالم، وأشهر ذلك في الكنيسة وبإطلاق المدافع كثيراً، والرقص والشنك ليلاً، وعلى حساب من خلق العالم تكون هذه السنة ١٨٥٠م من الميلاد و٧٣٥٨ على قولهم، وبقي أيضاً اختلاف بين الروس والأوروبيين ١٣ يوماً تأخروا بها عن غيرهم، ويمكن أن يوافقوهم في ذلك إذا صدر أمر القيصر.

الثاني: عيد الرفاع، وفيه ينصبون في الميدان الذي أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي والمراجيح ويبنون بيوتاً يلعب فيها الملاعيب، وفي بعضها يرون الحيوانات والوحوش المجلوبة كالسبع والنمر والذئب، وفي بعضها يجرون على الخيل إلى غير ذلك، ويبنون هناك محلاً عالياً كالجبل لإزلاق العوام، وفي هذا العيد قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم، بل أنواع الفطير والسمك، ويأكل الناس عند بعضهم رقاقاً يسمونه «بلني» طول هذا الأسبوع، وفيه يلعب التياتر في الظهر والليل كل يوم مرتين توديعاً، حيث إنه ليس في الصوم تياتر إلّا للأطفال.

الثالث: عيد الفصح، وهو فسخ الصيام، ويحيون ليلته ولا ينامون فيها بل ينتظرون نصف الليل، ويذهبون للكنيسة نصف الليل للصلاة، وهذه الصلاة طويلة نحو ساعتين، وكم فيها من زحام رجال ونساء، وتكثر اللصوص في هذه ونحوها فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد ثم بعد فراغ الصلاة يأكلون ويأخذون فطراً معهم إلى الكنيسة يبارك عليه ١٧١/ القسيس ثم يأكلونه بلبن منعقد.

وفي هذا اليوم تكثر الزيارات للتعييد كما في أوّل السنة، فهما اليومان اللذان يلزم أن أهل الخدم تذهب فيها إلى رؤسائهم والأحباب إلى أحبابهم والمعارف إلى معارفهم، وهما العيدان العموميان، ويكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش ونحوه، وهذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذه الأشياء ونحوها كالأزهار المصنوعة واللعب والصور للأطفال وصور وحيل وعربات وطيور وعصافير وبعض البيض منقوش مكتوب عليه عقيدتهم «عيسى نشر» وفي هذا العيد يتباوسون ثلاث مرات:

يقول الأول: قام المسيح.

ويقول الثاني: حقاً وصحيح، لأنهم يزعمون أنه قتل في السبت، ونشر في الأحد ولذلك يسمون الأحد «النشر»، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم... الخ)، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه. وعادة التقبيل باقية إلى الآن حتى أن القيصر يُعيِّد بالتقبيل، إلاّ أن الرجال لا تقبل النساء إلاّ المعارف القريبة والقسيس والعوام ونحوهم، وفي طول هذا الأسبوع تكون بيوت اللعب والمراجيح كما في عيد الرفاع، إلاّ أنه لا إزلاق بسبب عدم الثلج في ذلك الوقت غالباً.

الرابع: الميلاد، وهو قبل أوّل سنتهم بأسبوع، وهذا عيد كبير عندهم إلاّ أنه لا يتزاور إلاّ المعارف والأقارب، فليس كأوّل السنة والفصح، وفي ليلته يعملون شجرة صغيرة، وهي غصن شجرة يعملون لها قاعدة ثم يعلقون فيها من الحلاوات والفواكه والشموع لأجل الأطفال. وهذه العادة سرت للروس من النيمسا، وبقيت

أعياد أخرى بعضها تبطل المدارس والمحاكم، ولنذكر أيام الأعياد التي فيها ذلك التعطيل على الترتيب:

١ ـ أوّل كانون الثاني: أوّل السنة. ١٧٢/
٢ ـ سادسه: عيد الغطاس.
٣ ـ ثاني شباط: عيد دخول سيدنا عيسى إلى الهيكل وتطهير العذراء.
٤ ـ الجمعة والسبت: من عيد الرفاع.
٥ ـ الخامس والعشرون من آذار: عيد بشارة مارت مريم بحمل عيسى عليه السلام.
٦ ـ من الأربعاء إلى آخر الجمعة الأخيرة من الصيام الكبير.
٧ ـ أسبوع الفصح.
٨ ـ الحادي والعشرون من نيسان: عيد القيصرة الحالية اسكندرة فيدروفنا.
٩ ـ تاسع أيار: يوم نقوله، صاحب الخوارق.
١٠ ـ عيد الصعود.
١١ ـ عيد روح القدس يومان: الأحد والاثنين، وفي الاثنين تفسح كبير في جنينة الصيف، يسمى عنـدهم إظهار العرائس تتبرج فيه العذارى ويخرجن مع الأقارب عسى أن يخطبن، ووهذه عادة قديمة بقيت منها آثار عند بعض التجار والعوام.
١٢ ـ الخامس والعشرون من حزيران: عيد ولادة القيصر الحالي نقولة الأول.
١٣ ـ التاسع والعشرون: عيد الحوارييـن بطرس وبولص.
١٤ ـ أوّل تموز: ولادة القيصر.
١٥ ـ سادس آب: عيد التجلي.
١٦ ـ الخامس عشر: وفاة مارت مريم.
١٧ ـ الثاني والعشرون: تتويج القيصر والقيصرة.
١٨ ـ الثلاثون: يوم اسم ولي العهد اسكندر.

١٩ ـ ثامن أيلول: ولادة العذراء.
٢٠ ـ الرابع عشر: عيد الصليب.
٢١ ـ السادس عشر: يوم الحواري المعمد يوحنا. ١٧٣/
٢٢ ـ أوّل تشرين الأول: ستر العذراء وشفاعتها.
٢٣ ـ الثاني والعشرون: يوم صورة العذراء القرانية، صاحبة الخوارق.
٢٤ ـ العشرون من تشرين الثاني: جلوس القيصر على التخت وتحسب من التاسع عشر.
٢٥ ـ الحادي والعشرون إظهار العذراء في المعبد.
٢٦ ـ سادس كانون الأوّل: يوم اسم القيصر ومار نقوله.
٢٧ ـ الثالث والعشرون: يبتدىء التعطيل في المدارس إلى آخر الشهر.
٢٨ ـ الرابع والعشرون إلى السابع والعشرون: عيد الميلاد وزيادة على هذه الأيام للمدارس أيضاً، تعطيل في وقت الصيف، فبعضها يمكث شهراً ونصف، وبعضها ثلاثة أشهر.

الفصل السابع

في الخط العمومي

١ ـ **التياتر**: ابتدأ في بتر بورغ بهمة شاه زادة نتاليا أخت بطرس الكبير، وبنى أوّل تياتر من الخشب، وكان اللاعبون عشرة والموسيقيون ستة عشر كلهم من الروس، وأوّل دور لعب في ذلك التياتر: تراجيديا، يعني: رثاء.

وكان التياتر إذ ذاك على الخزنة، والناس يتفرجون مجاناً، ولما ماتت نتاليا، بطل التياتر إلى تملك القيصرة حنا، ثم دعيت اللاعبون الإيطاليون ثم الفرنساويون، وبتقدم الأدب الروسي ظهر التياتر الروسي، فصنف أوّلاً سوماروكوف تراجيديا روسية على كيفية التياتر الفرنساوي وسحر أقرانه، والقيصرة إليزابيت

اعتنت جداً أيام التياتر، وقلما تغيب عن الحضور إذا لعب.

وفي سنة ١٧٥٥م لعبت أوّل أوبرا روسية «مراريا» الذي صنف لها الموسيقى أنعم عليه بكرك ومائة[1] نصف امبريال، وفي أوّل مملكة كترين الثانية، أخذت التياتر قوة جديدة، فأنعمت حيث جلوسها على التخت ١٧٤/بتكثير الجماكي (الرواتب)، وتحسين الملابس، وأرسل ديميريفسكي إلى البلاد الغربية ليتقوى في صناعة الغناء، ثم أرسل إلى باريز ليدعو بعض اللاعبين الفرنساوية، وبنيت مدرسة لتعلم التياتر، وبني تياتر كبير من الحجر سنة ١٧٨٤م، وكل الناس تقدر أن تروح بثمن مقدر، وزاد ذوق الناس للتياتر ولا غرو، فالناس على دين ملوكهم.

كاتـرين كانت ماهـرة جداً في هذا الفن كغيره، حتى إنهـا صنفت أدواراً استخرجتها من التاريخ الروسي والحكايات الروسية، وبلغ عدد اللاعبين في آخر مملكتها إلى ٢١، واللاعبات إلى ٢٢، ومع أن التياتر الفرنساوي ابتدأ في زمان اليزابيت، لكن كاترين ما وفرت شيئاً لتحسينه ورفع درجته، وزيادة على التياتر الميري كانت تياتـرات للكبراء، منها تياتر الأمير يوسوبوفا، كل جمعة مرتان من خمسة لاعبين وخمس لاعبات، وهو أوبرا إيطاليانية، والمال من الكبراء محبي التياتر، ثم رتبت جمعية النيمساوية تياترين نيمساويين.

وفي سنة ١٧٦٥م، رتب التياتر الإنكليزي وبقي سبع سنين ثم انقطع وما تجدد إلى الآن، وفي أيّام القيصر اسكندر الأوّل زاد حسن التياتر، وكثرت جمعية اللاعبين واللاعبات.

وفي سنة ١٨١٧م خلص اللاعبين من القردة، وفي زمن القيصر الحالي نقوله الأول بلغ التياتر الدرجة العليا، إذ بُني في زمنه بالحجر التياتر الاسكندري للألعاب

---

(١) مائة وأربعين.

(٢) الجماكي: جمع جامكية، وهي مكافأة مالية.

الروسية، والتياتر الحجري في جزيرة الحجر، وتياتر ميخائيل للألعاب الفرنساوية والنيمساوية، والتياتر يلعب طول السنة، ويبتدىء في المساء، وكذلك الرقص والنوبات إلاّ أنه تارة تعمل نوبات في النهار، وذلك لأن الناس مشغولون طول النهار، فينبغي لهم التسلي في الليل، لأن السامة فيه أقوى، ولله درُّ أبي هلال العسكري، حيث قال: ١٧٥/

فاجعل الجِدَّ بالنهار شعاراً ... والْهُ بالليل ما بدا لكَ واطرَب
كم تسربلت من رداء ظلامٍ ... ضحك اللهو منه إذ هو قطَّبْ
ورأيت الهموم بالليل أدهى ... وكذاك السرور بالليل أعذَب

إلاّ في أيام الصوم الكبير، وصوم وفاة مريم، وبعض أيام أُخر، لكن في الجمعة الثانية من الصيام الكبير، يعمل اللاعبون نوبات، ويظهرون مع ذلك صوراً حقيقية، فيحصل بذلك للناس السرور والتسلي.

٢ ـ النوبة: ما كان ميل الروس إلى صناعة الموسيقى وذوقهم مثلما كان في النيمسا وغيرها من الأوروبا، لكن بعد ذلك انبثت الشهوة، وزاد الشوق في القلب الروسي إلى هذا التمتع الروحاني، وفي وقت كاترين الثانية ابتدأت في بتر بورغ جمعيات الموسيقى، وأحدث في سنة ١٧٧٢م أوّلها من ٣٠٠ عضو، وكل أسبوع تعمل ليلتين، وتأتي الناس فيها بكثرة للسماع، لكن هذه الجمعة ما طالت مدتها، ثم أحدثت أخرى تعمل كل سبت نوبة، وكل أسبوع رقصاً أو مسخرات، وأعضاؤها ٥٠٠ كل يدفع ١٥ ربلاً، والتخت يجلس عليه خمسون من أعظم الموسيقيين، وأوّل المغنين والمغنيات. وكل مشاهير هذه الصنعة في ذلك الزمان يجيئون في بتر بورغ ويعملون النوبات، ويأخذون عليها مبالغ جسيمة من ١٠٠ ـ ٢٠٠، ثم بلغت هذه الجمعية حدها، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فبيعت الآلات والأثاث في محضر عظيم من الناس، ثم أحدثت أخرى، وبموت أعضائها ماتت، ثم في سنة ١٨٠٢م ابتدأت جمعية فيل ارمونيا يعني «محب الموسيقى» بقصد إعانة فقراء

الموسيقيين، ودامت إلى هذه الأيام، وقبل نيف وعشرين سنة كان رأس مالها ٦٠٠٠٠ روبل، يعطى منها راتب لاثنين وعشرين من أرامل الموسيقيين كل سنة ١٧٦/ (٣٠٠ للواحدة)، ومن ذلك الزمان زادت مرميتها، واتسعت نعمتها، ومع أنها لا تعمل النوبات العمومية إلّا نادراً مرتين في السنة، وقبل نحو ستة عشر سنة أحدثت جمعيات أخرى للموسيقى. وفي كل سنة خصوصاً في أيام الصيام تعطى نوبات كبيرة مشتملة على الغناء على القانون أو اللعب بالكمنجة أو بالنادي خصوصاً للمشاهير مثل روبيتي، فإن نوبته ساوت ٤٠,٠٠٠ ربل مع أنه ما غنّى إلّا أربعين دقيقة، وتارة تعمل نوبات باسم السقط أو المرضى، فيؤخذ المبلغ ويدفع لهم، وتارة تعمل نوبات مخصوصة في البيوت لأجل المعارف، فحينئذ يسمعون مجاناً، ومن حيث أن تربية النساء مستوجبة لتعليم الموسيقى والغناء، فلا يندر سماعهن في بيوتهن، وقد اتفق أني سمعت فتاة سوداء العيون والشعور تلعب على القانون فأطربني ضربها فقلت:

مصرية بعيونها وشعورها	فبها ترى مصرا بذيّاك الحمى
لله درُّ بنانها قد أحكم الـ	قانون حتى كاد أن يتكلما

وبالجملة، فقد يعجبنا تارة لعبهم وغناؤهم إذا كان حسناً كغناء روبيتي، وبعض الإيطاليين المشهورين بحسن الضرب والغناء، وتارة يعجب الضرب دون الغناء كما قال الشاعر:

غناءٌ تستحق عليه ضرباً	وضرباً تستحق به غناها

وتارة لا هذا ولا هذا، كقول أبي الفتح الحلبي، وهو أملح ما قيل في هجاء عوّاد:

ومُغنٍّ عن غيره غير مُغْنٍ	جاء في لحنه القبيح بلحنِ
كاد في كفه القضيب من الغيظ	ينادي يا أثقل الناس دعني

وقد كتب إلى الخواجة فريسنل، قنصل جدة حالاً ما نصه:

«ومن خصوص الموسيقى، لا بد من واحد جنّي أو مَلَك من الملائكة يقضي ما بينكم ١٧٧/وبيننا، لأننا لا نتلذذ بأغانيكم ولا تتلذذون بألحاننا، وأمّا مِن جهة الشعر والأدب فجميعنا على ذوق واحد، إن شاء الله إلّا القليل، وإذا أقمتم بأرضنا مدة كم سنة كان في الاتفاق بينكم وبيننا من غير استثناء قدرة الله آمين».

٣ ـ **الرقص**: ليس إلّا حركة خالية من الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسلي الحاضرين، فلذا يعتبره أهالي بتر بورغ من أعظم المسليات بعد التياتر والنوبة، ويبتدىء من الخريف إلى الصوم الكبير، ويكون في العصر عند القيصر وعند الوزراء والأمراء وأرباب المراتب من ذوي السيف والقلم والأغنياء وشهبندرات التجار وغيرهم، كل على حسب حاله، وتارة يكون عمومياً كما في مجلس الأعيان ونحوه.

وأوّل ابتداء الرقص في روسيا كان في زمان بطرس الكبير، وفيه حصل للروس اكتساب قوانين الأوروبا والملاطفة وحسن الخطاب الناشىء ذلك عن اجتماع النساء والرجال، فيتكلف الرجل في مخاطبة النساء ما لا يتكلفه في خطاب الرجال، حتى صار التكلف كلفاً، ولو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلّا قصر النظر عليهن وعدم التعلق بالغلمان لَكَفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قلت:

ولو أنّ النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزّلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجهٍ	ساطعٍ نوره بغير لثامِ
قلبت برقعاً بعقرب صدغٍ	أفَمِنْ لدغة الخدود دوامي
ولكل امرىء جليسٍ أنيس	فاتّقوا الله يا أولي الأحلام
أيّ عُذرٍ في عِشق رب عذار	في هوى الغانيات أيّ ملام

وفي زمن كاترين الثانية كانت جمعية الرقص لازمة لحظ الكبار، وغيتهم زادت على الحد، والتزين والتفاخر والإسراف في الأعياد ١٧٨ /حتى عند التجار الروس بلغ أقصى درجة، فتارة تغطي السُّفَر لآلاف من الناس وينفقفون مبالغ جسيمة ٥٠,٠٠٠ ربل أو أكثر، وبقي من هذا آثار إلى الآن، لكن الأكثر البساطة وعدم التكلف في لبس الستات على الذوق الأوروبي وإكرام الأضياف وأدب الأولاد، ولا يلزم الضيف أو زائر الجمعية أن يرقص أو يلعب الورق، بل على كيفه، فيجوز له أن يجلس ويلاحظ من يلعب أو يرقص، إلّا أنه قد يستثقل من يترك اللعب أو الرقص بلا سبب في البيوت لا في الجمعيات لأنه لا تكلف فيها، قال بعضهم: لو حسب عدد الآتين في جمعيات الرقص، وفي الليالي المعمولة، وطرح منه عدد من يلعب الورق أو يتفرج كان الراقص واحد من مائة وستين.

ثم أنواع الرقص كثيرة، المشهور منها ثلاثة:

الأول: الفلس، وهو مفتاح الأنواع، ففي السهرات والأعياد أوّل ما يبدأون به، وكيفيته أن يأخذ رجل امرأة فيضع يده اليمنى على خصرها واليسرى في يدها اليسرى، وهي تضع يدها اليمنى على كتفه، ثم يلفان بحسب القانون الذي يضرب عليه القانون أو غيره من الآلات الموسيقية، ويتولد من هذا النوع نوع يسمى البولكه «البسيطة، والبولكة بالارتعاش بإمالة الرأس وإرعاش الجسد بغاية الصناعة، وهو بالعذارى أليق خصوصاً بالهيف لا بالسمان.

الثاني: القادريل الفرنساوي، وهو التابع للأول، ففي العادة يرقصونه بعد الفلس، وهو أن يجتمع الراقصون، كل رجل مع امرأة وفي مقابلتها كذلك زوجان أو أكثر في طول المقعد، وكذلك في العرض، وهو مركب في ست صور في جميعها يبتدىء الراقصون الذي في الطول. ١٧٩/فإذا فرغوا في أوّل صورة بدا الذي في العرض، وهكذا الأولى، يمر كل زوج من الراقصين إلى مقابله، ثم يرجع إلى موضعه بحيث أن يتزحزح كل من الراقص والراقصة ثم يتقدمان ويد كل واحد

في يد الآخر اليمنى في اليسرى وعكسه، ثم يلفان في محلهما دوره، ثم تذهب الراقصة فتأخذ بيد الراقصة المقابلة وتلف معها لفة، ثم يأخذ الراقص راقصة غيره ويلفها في موضعه، ثم تجيء راقصة فيمسكها بيده، ويذهب إلى الموضع المقابل ثم يرجعان إلى محلهما.

الثانية: أن تذهب امرأة نحو الطرف المقابل إلى نصف المقعد، ثم تقهقر قليلاً، ثم كذلك إلى حيث المقابلون لها، ثم تكر راجعة، فقبل وصولها يمشي من ترقص معه أمامها قليلاً لملاقاتها، ثم تضع يديه في يديها على ما قدمنا، ويلفان لفـة، ويفعل مثلها رجل من الطرف الآخر يقابلها، وعند رجوعه تقابله راقصته، فتمشي له قليلاً ثم تضع يديها في يديه، ويلفان لفة، ثم تذهب الامرأة الأخرى، ويقابلها الرجل الآخر، فيتم أن كل رجل وامرأة رقص أمام مقابله.

الثالثة: أن تذهب امرأة إلى المقابل ثم تكر راجعة إلى نصف المقعد، وتأخذ بيدها اليمنى راقصها وبيدها اليسرى الرجل الآخر الذي يفعل مثلها، ويكر راجعاً ويأخذ بيده راقصته، ثم يمشي الزوجان قليلاً، ثم يفترق كل زوج قليلاً، ثم يفترق كل زوج فترقص المرأة أمام الرجل المقابل بأن يتقدم ثم تتأخر وهو كذلك ثلاث مرات، ثم تأخذ يد راقصها وتذهب إلى المقابل، والرجل الذي أمامها يأخذ راقصته ويذهب إلى المقـابل، ثم يرجع كلٌ إلى موضعه ثم يعاد ذلك، فيبتدىء الرجل والمرأة الأخرى على نحو ما تقدم.

الرابعة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويرقص معها إلى المقابل ويقف قليلاً، فتـرجـع الراقصة المقابلة معها وهو يمر بينهما ثم يتقدم لراقصته ويلفان وكذلك الآخران ثم يأخذ الرجل الثاني ١٨٠/بيد راقصته ويفعل كالأول.

الخـامسـة: أن يأخـذ الـرجـل بيد راقصته ويذهب بها إلى الطرف المقابل فيأخذها الآخر على شماله وراقصته على يمينه، ويرقص معها بأن يتقدم ثم يتأخر ثلاث مرات، ثم يأتي الرجل الآخر فيأخذ راقصته فيرقص معها أمام ووراء، ثم

يرجعان، ثم يفعل الرجل الآخر كالأول.

السادسة: كالأولى، إلّا أنه تارة قبل ذلك يمشي كل زوج، ويد كل راقص في يد راقصته، وتارة عين الرجل على خصر المرأة ويسراها على كتفه إلى نصف المقعد، ثم يكر راجعاً.

الثالث: المازورق، وهو أن يجتمع أزواج كثيرة، ويجلس كل راقص مع راقصته كالحلقة، ثم يبتدىء رجل مع امرأة، فيرقص معها بطول المقعد، ثم يكر معها راجعاً، ثم يلفان واضعاً يده على خاصرتها، ثم الثاني والثالث، وهكذا إلى الآخر، لكن يحدثون بعد كل مرة شيئاً بأن تجلس امرأة في الوسط، ويأتي رجل تعيّنه يسمى «كاتم السر» فيقف عندها، ثم يأتي راقصها برجل وامرأة، فإن كان ذلك الرجل هو الذي تريد قامت ورقصت معه، ورقص رجلها مع المرأة المجلوبة، وإن كان غير الذي تريد، ويعلم ذلك بإشارة كاتب السر أن لا رقص ذلك الرجل مع المرأة المجلوبة، وأن رجلها برجل وامرأة، وهكذا حتى يأتي الرجل الذي تريد أو بأن ترمي امرأة منديلها إلى الهواء فمن خطفه رقص معها، إلى غير ذلك، وليس في كل هذا ما يخل بالأدب، ولا يشتم رائحة الفجور، وإنما هي عوائد وأخلاق لإراحة النفوس من الإرهاق، ولا يصدق ذلك إلّا مَن رأى وإن صدَّ غيره ونأى:

وإذا لم تَرَ الـهـلالَ فسلِّم لأنـاسٍ رأوه بالأبـصـار

الرابع: المسخرات، جمع مسخرة، وأخذ الجمع من لسان العربي، ١٨١ / وسمي به في لسان الروس هذا النوع من الرقص، لكنه أبدلت الخاء بالكاف واخترعه كرانتيس في سنة ١٥٤٠م لأجل إظهار حركة الشجعان، وأوّل من قاده في الروسيا بطرس الكبير، يعني بهذه الكيفية، وإلّا فالمسخرات في الميلاد موجودة في الروسيا من قبل، ويكون رقص المسخرات في قصر الشتاء ومجمع الأعيان، وفي التياتر الكبيرة خصوصاً في عيد الرفاع، ولبس المسخرات مفتخر، ويلبسون

المسك يعني جلداً مصوراً، ووجهاً قبيحاً أو شيئاً من حرير يغطي الوجه، ومن أراد الرقص رقص، ومَنْ لا تَفسَّح، ويتوصل بهذه الطريقة إلى الكلام مع النساء، ولأنهن غير معلومات فيقول الرجل: أنا أعرفك وينزل عليها، وكذلك النساء، وربما كان وسيلة للتعرف بالكبار، وتارة يكون هناك من النساء قليلات الاحتشام، ولما رأيت ذلك أوّل مرة تذكرت مصر، فإن النساء مغطات الوجوه إلّا أن كثيراً بلا مسك، والقيصر يحضر المسخرات ويمشي مع امرأة لابسة مسكاً، وكذلك العائلة الملكية، ويزيدون تارة في المسخرات القمار وهو تحف ظريفة، وطُرَف لطيفة، يبيعونها على البخت لمصلحة الفقراء،· فيكتبون أوراقاً صغيرة وينمرونها ويبيعون كل ورقة بربل فضة مثلاً، فمن غلب أخذ ومَنْ لا فلا، وتارة يفعل هذا استقلالاً.

الخامس: لعب الورق: جرت العادة عند الروس لأجل تقضية الزمان، أنهم إذا جاؤوا عند المعارف يلعبون الورق لأجل تقضية الزمان، فيجلس اللاعبون ثلاثة أو أربعة على سفرة ويعينون أوّلاً قدر الدراهم لكل ضربة كبيك فضة، أو عشرة أو أكثر، بحسب مقام اللاعبين، ثم إذا فرغ اللعب أعطى المغلوبون للغالبين، ويوضع من تلك ١٨٢/الدراهم ثمن الورق الذي يصنع في فبريقا لفائدة بيت اللقطاء، ثم إذا طلبوا اللعب ثانياً أو طلب غيرهم أحضر الخادم ورقاً آخر جديداً، ودائماً يحضر زوجاً، لأنه إذا فرغ دوراً أخذوا الورق الذي لا يلعب به، وفرقوه بينهم اثنين اثنين، وفي ذلك الوقت يخلط الورق الذي لا يلعب به كي لا يضيع الوقت في غير اللعب، وهذا قمار محض، إلّا أنه في هذه البلاد سارٍ بين العباد فقلّ مَن لا يلعب حتى من النساء والبنات، ويعدون ذلك من أحسن المسليات، فإن الضيوف إذا اشتغلت مع بعض في الورق كفت أصحاب البيت مؤنة الملاطفة خصوصاً إذا كثرت الضيوف، وفي بعض البيوت ينضم إلى لعب الورق غيره من المسليات مثل الرقص، وتارة لا، فيقضون الليل في هذا النقار والقمار، ومَن فرغ كيسه ربما لعب بالشكك (الدين)، وربما ضيَّع في اللعب ضِيَاعَه، وجلب الطمع له ضَياعَه، واللعب المشهور الآن يسمى بريفرانس، وهناك لعب آخر يسمى

«الفيست» أقل شهرة. وأنواع لعب الورق لا تحصى، منها نوع يسمى «ميلنيك» يعني الطاحونة لا يدور طويلاً، ومنها نوع يسمى «دورسكي»، فمن غلب يسمى «دورك» يعني مغفل، وهذان في الغالب بين الصغار والعوام، وهناك لعب للنساء يسمى «بسيانس» يعني «الصبر»، وهو نوع من الحزر، فيكهن بالورق الآخر، وقد اتفق أن حزرت لي بنت بالورق، فقالت: يصلك مكتوب عن قريب، وبالاتفاق وصلني المكتوب وأنا في بيتها، أتاني به بعض الضيوف، فأريته إياها، ففرحت، وقالت للناس: انظروا: صدّق كهانتي، ولذا قلت ١٨٣ /من قصيدة في جواب ذلك الكتاب لمن أرسله لي مورّياً:

وقـد وردت لي من لديك صحيفـة	وقد سبقت لي من فتاة بها البشرى
ومـن عجـبٍ جاءت إلـيّ ببيتـهـا	فحقّقْتَ إثبـات الكـرامـة للعـذرى

وقد كتبوا كثيراً في أصل لعب الورق، لكن ما كشف أحد الحقيقة في اسم المخترع، والناس المنسوب إليهم اختراعه، قال ريل الخوري: يعرف لعب الورق في إسبانيا في نحو ثلث القرن الرابع عشر منن الميلاد، وأيّد رأيه بمنع الفونس، ملك كستيل لعب الورق بالفلوس سنة ١٣٣٢م، وآخر ينسب ذلك إلى النيمسا، وكـان جبلينا أتى بالورق من قدماء المصريين، ومع ذلك ادعى عدة من العلماء ببعض أدلـة أنّ فرانسـا كانت مهد الورق، وبعض المؤرخين أوصل ذلك أصل هذا اللعب إلى مملكة شارل السادس، وأن اختراعه كان في زمانه لأجل تسليته في وقت راحته وفراغه، وعلى قول هؤلاء المؤرخين، فاللعب المسمى «بيكر» اخترع زمن شارل السابع وداود ملك بيك في كلامهم كناية عن شارل السابع، وما شارل ملك كور فشـارل ماني، وأمّـا سيزار ملك كرو واسكندر ملك تريفل فما حققوا فيها شيئاً، ويظهـر أنهم أرادوا بهـا ملكين من ملوك فرانسا، لأن شعر العيرة الطويل والنعال المصورين بهما لا يشبهان بالكلية شجعان روما ولا مقدونيا اللذين لهما اسمهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه يوجد في الورق القديم المحفوظ زهر الزنبق في عباءة الملكين، وهذا علامة الفرنساوية، وقد قلت:

هيفـــاء افــرنـــجـــية قد زَنَـت تخـطر في الحلي والاستبـرق
فالآس والنسـرين في شعـرهـا والــورد والـزنبق في القـرطف
١٨٤/ســألـتـهــا نسبــة آبــاتـهـــا قالـت ألم تنـظر إلى الــزنبق

وأرجين ملكة تريفل كناية عن زوجة شارل السابع ماريه دونجو Maria Dunjia ، وأمّا راسد ملكة كرو فهي اكنيس سورل، وأمّا بالاس ملكة بيك فهي جان دارك، وأمّا جوديت ملكة كور فهي القيصرة بهذا الاسم زوجة لويز لبثون يعني الطيب، وأمّا لاهير خادم كور فهو كناية عن قبطان كبير في وقت شارل السابع، وأمّا هيكتور خادم كرو فهو هوكتور غالودان شجاع في ذلك الوقت، وأمّا أوجير خادم بيك فكناية عن شجـاع في أيام شارل ماني، وأمّـا لانسلو خادم تريفل ففارس في ذلك الوقت، والخـدام الأربعـة المسمـاة في لعب الاسبـانيول بالفـرسـان، كناية عن الأعيان والسبعـات والثمانيات والتسعات والعشرات كناية عن العسكر، والآس كناية عن المال والصيد، مأخوذة من الكلمة اللاطينية «آس» يعني «معاملة رومية»، والاثنان والثلاثة والأربعة والخمسة والستة كناية عن العامة، ولذلك تسمى الورق «الأدنى». وما كانت في عهد شارل السابع بل أُحدثت بعده، وهذا اللعب كناية عن معركة تتقابل فيها العسكر لحفظ الأعيان والملوك، لكن حربهم وإن أجدى لا يُرقّيهم إلى رتبة الملوك، كما هو عادة مخترع هذا اللعب، بخلاف الشطرنج، فإن معركة ربما ترقى فيها البيدق إلى مرتبة الفرزان، ومجالسة الملوك كما هو عادة مخترعيه، ولله القائل: ابن قلاقس الفاضل:

فرزن الـبـيدق الـتـنـقـــل حتّى م انحط عنـه في قيمـة الدست فيل

وأبو الفضل التميمي: ١٨٥/

دعني أسِــر في البــلاد ملتمســاً فضــلة مال إن لم يفــر زانـــا
فبــيدق الــرّخ وهــو أصـغــر ما في الــدســت إن صار فر زانـــا

السادس: جري الخيل: هذا من مقتضيات الزمان اللذيذة، ومن نحو سنتين،

بني لذلك تياتر فيجرون على الخيل، ثم ينطون من فوقها على حبل ثم يرجعون، وتارة يرقصون عليها أنواع الرقص وبالجملة، فقد أدخلوا ذلك في التياتر، وصاروا يلعبون في كل أسبوع مراراً، والناس يذهبون بكثرة لرؤية ذلك، وفي الصيف سباق الخيل في تسارسكيا سلو لمن سبق الرهان، وكذلك في الشتاء على النيفا، وربما تسابقوا في الزوارق صيفاً وخصوصاً الإنكلزيون.

الفصل الثامن

في تقدمهم في العلوم والفنون

لم تزل الروس يوماً فيوماً تنافس غيرها من الأوروبيين في العلوم والصنائع، حتى تقدمت في ذلك، ولهم كما قدمنا أكديميات للعلوم والتصوير والطب وغير ذلك، ولهم المدارس العظيمة، مثل المدرسة القيصرية الكبرى المسماة «الأونيفر ستيت»، وفيها تتعلم التلامذة الذين فرغوا من التعليم اللازم في المدارس الأخرى، فيمتحنون للدخول في المدرسة الكبرى، فإن أجابوا دخلوا، وهناك يبقون أربع سنين، يتعلمون الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن والطبيعة والجغرافيا والتواريخ والألسن، حتّى الألسن الشرقية: العربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرمني والكرجي، وفي كل سنة يعمل لهم بحث، فإن أجابوا نقلوا إلى ما يلي، وإلاّ بقوا، فحينئذ بها تحسب السنة لهم. ١٨٦/وعدة المدارس الكبرى في الروسيا ستة، واحدة في بتر بورغ، والثانية في موسقو، والثالثة في خاركوف، والرابعة في قزان، والخامسة في كييف، والسادسة في دربات، وهناك مدارس أخرى تسمى «انيستيتون» و «ليسي» و «غيمنازيا»، ومكاتب للأطفال ما يبلغ ٢٣٠. وفي كل سنة يزداد ذلك، وفي المكاتب والمدارس الصغرى يعلمون البنات أيضاً كالصبيان، فيتعلمون النحو والمنطق والرياضيات والأدبيات والجغرافيا والتاريخ والألسن والرقص والتصوير والموسيقى، وتزاد البنات: الخياطة وشغل

الـطارة والإبـرة والمنسـج، وتزاد الصبيان: لسان اللاطيني والرومي القديم، وقد حضـرت غير مرة بحث الصبيان والبنات، وعجبت من حُسن إجابتهم عن سؤال الباحثين، فالبنات عالمات حقيقة، وبعلمهن يعشن خصوصاً إذا كانت الأقارب فقراء، فتعلم البنت التي فرغت التعليم أولاد الكبار بماهية سنوية تليق بحالها، وربما أعانت أقاربها، وبعض هذه المدارس ميرية، وللصم والبكم، الذين يعقلون مدرسـة فيهـا يتعلمـون العلوم والتصوير والرقص والألسن، لكن لا يتكلمون إلّا بالإشارة، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصم البكم، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم، وكان اللاعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجبون من كيف يعرف اللعب ولا ينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها:

ولـم يرَ عيبـه أحـدٌ ولـكـن يرى، في النـاس كلهم العيوبـا

وكـذلـك للّقطاء بيت فيه يربَّون، لكن لا كتربية الأكابر، بل كتربية العامة، فالذكران يكونون عسكراً، وأمّا الإناث يخدمون بنات الأكابر ١٨٧ / المتعلمات في المدارس الميرية، وهذا من الخيرات والمصالح، إذا اللقيط منبوذ لا كافل له فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟ وهب أنه ابن حرام، فماذا ذنبه؟ والعجب أنه إلى الآن لم يعمل بيت للقطاء في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة، وهذا مثل المارستانات والقشل والاوستباليات التي هي كثيرة في هذه الديار، وكذلك في ديار الإسلام الآن بمعونة الدولة العلية.

خرجنا من ذِكر العلوم والفنون إلى بيوت اللقطاء وذوي الأمراض والجنون:

ولـربمـا ذكَـرَ المحـدِّثُ بعض ما ليس الـنـديمُ إلـيه بالـمـحتـاجِ

وثمرات العلوم الكسب بها والفخر والرتب، فمن تعلم خدم بعد فراغ التعليم، وربمـا كتب شيئاً وبثه في الجرنالات أو طبعه مستقبلاً، فيحصل له مدخول من

ذلـك، ولا تستنكف النـاس حتى الأغنياء من ذلك، كما كان في قديم الزمان، ومدخول الأدباء كثير في الروسيا، وفي فرانسا أكثر مثلاً، فمن كتب عندهم غناء وقيل في التياتر، يعين للناظم في كل مرة يغني شعره جزء من محصول ذلك الدور، وأحد هؤلاء الكتاب مسيو سكريب، كتبَ في حياته بإعانة المشتغلين معه ٣٥٠ دوراً، وفي سنة ١٨٣٢م قبل منها مدخولاً إلى مبلغ ٤٨,٠٠٠ فرانك، ومن ذلك الجرنالات وعددها الآن جاز الحد، ففي بتر بورغ بعضها يومي مثل «نخل الشمال» و «السقط» و «أخبار بتر بورغ»، وكلها روسية، ويكتب فيها زيادة على الأخبار بعض أدبيات. وبعضهـا شهـري مثل «ابن الوطن» و «الكتابة الوطنية» و «المعاصر» و «كازيطة الأدب» و «خزانة الكتب للقراءة»، فكل شهر يظهر منها كتاب، وفي السنة ستّ مجلدات، وهذه كتب أدبية جديدة يكتبها أدباء ١٨٨ / العصر، ويظهرونها في قالب الجرنالات للتنشيط، وهناك جرنالات شهرية للأطفال يكتبون فيها نبذاً من العلوم والحِكَم والحكـايات المسلية الـلائقـة بهم، وهنـاك جرنـال فرنسـاوي ونيمساوي، هذا مع قبول الجرنالات الغريبة من فرنسا والنيمسا وغيرها، ومن ذلك تعلمهم الألسن، فالروسي زيادة على معرفة لسانه يتعلم الفرنساوي والنيمساوي وتارة الإنكليزي والطلياني، وأمّا اللاطيني والرومي فيتعلمون، ولكن قلّ مَنْ يتكلم بها، فيندر أن ترى رجلاً أو امرأة في مجلس لا يتكلم بالفرنساوي أو النيمساوي، حتّى أن كبـار الـروس لهم زهـادة في لسـانهم، فتـراهم يتكلمون بالفرنساوي، وبعضهم يتكلم بالروسي، لكن يحليه دائماً بالجمل الفرنساوية في الأثناء، ومنهم من يتكلم الألسنة الشرقية، وكثير من الروس مَن مهَر في هذه الألسن، وبرع فيها، فكم ترى في بتـر بورغ وفي الآسيا والأفـريقيا من يحسن ذلك منهم، وقد أغنوا دولتهم عن اتخاذ الغرباء ترجمانات كما كان في السابق.

الفصل التاسع

في سكنى الروس ومعيشتهم ومركوبهم

اعلم أن بيوت الروس مبنية غالباً بالحجر، وتارة بالخشب، لكن مع الإحكام بحيث تقي من البرد، وهو أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك والبيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الأسفل الدكاكين والثاني مسكون بالناس، وكل مسكن مستقل وحده. مثلاً قد يسكن في البيت الواحد عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه، وفي مدخل الباب أوضة صغيرة، فيها يقلع الداخلون فراويهم وعباءاتهم، ثم يدخل إلى أوضة كبيرة فيها القانون، ثم منها إلى أخرى تسمى مقعد الضيوف، ١٨٩ /وأخرى للطعام، فلا يأكلون حيث يجلسون غالباً، وأوضة للاشتغال، وأخرى للنوم، وللكبراء أكثر، وللفقراء أقل، وأثاثهم الكراسي من الخشب الأحمر أو خشب الجوز، وربما بطنوها بالجوخ ونحوه، وتارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل، ثم السُّفر وبعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة والسفر الموضوعة أمام المرآة وبعضها مستدير مثل سفرة الطعام، ثم المرآة، وفي كل أوضة اثنان أو أكثر بحسب اتساع المحل وضيقه، وهي طويلة، وفي كل أوضة مدخنة محكمة تدفىء كل يوم في أيام الشتاء، وبسبب ذلك الروس متعودون على الدفء في البيوت، ففي الأوضة نحو أربع عشرة درجة حرارة، فلا عجب إذا شكوا في مصر واسلامبول البرد لعدم حرارة الأوض عندنا إلى هذا العدد في الشتاء، وعدم المداخن إلاّ المنقل الذي لا يدفىء التدفئة الكافية كما أنه لا عجب إذا شكوت من الحر في بتر بورغ لأن حرّها وإن قل مضعف جدّاً بسبب خلوه من الريح والنسيم الرطب، وبهذا السبب بعينه لا يمكن السكنى في بتر بورغ في الصيف، فترى الناس يفرون منها إلى الريف والضواحي والبلاد

الغريبة، وبيوت ضواحي بتر بورغ محكمة إلّا أنها ليست كإحكام البيوت التي في المدينة مثلاً، وفي المدينة تضاعف الشبابيك من الخريف إلى الربيع، ثم ترفع الشبابيك الزائدة، والمداخن مبنية بقطع البلاط المدهونة بالأبيض بحيث لا تشوه الأوض، ومن تحسين البيوت أنهم لا يلصقون على الجدران أوراقاً طويلة عريضة منقشــة، كل على حسب ذوقــه، وبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبـه، ويعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير أو الجوخ أو الشيت يمسكونها بأيد من التنباك ونحوه، وربما علقوا ١٩٠/على الجدران صوراً جميلة، وعلى سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات والقناديل الفضية، أو التنباك والـدمى الـظريفـة، والتحف النفيسـة، واللعب البـديعة، وربما زينوا الشبابيك بالأزهار، وربما فعلوا نحو عشرين عريشاً من الأزهار في وسط الأوضة ويبسطون السجاجيد أمام السفر والدواوين النقالة والبيوت مبلطة بالخشب، ويغسلونها كل سبت، وتارة يصقلونها بالشمع الاسكندراني، فتكون براقة لماعة، وهذه البيوت بعضها بالكراء وبعضها بالملك، فمن ليس له بيت أكرى، والكراء غال في هذه البلاد خصوصاً في المضايف المعدة للمسافرين، ثم الغالب أن يأكل الشخص في بيتـه بأن يهيىء له الـطباخ أو الطباخة الغداء، وأكلهم الشوربة، ويحب الروس شوربة الكرنب، وقبل الشوربة يشربون العرق قليلاً، وربما أكلوا فسيخاً أو جبناً لجلب الاشتهـاء، ثم بعد الشوربة الخضار ونحوه، ثم الكباب ثم الحلو الفطير ونحوه، وفي مدة الطعام يشربون الراح كالماء القراح، وأكلهم بالسكاكين والشوك والمعالق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينه وشوكته ويشرب من كبايته وقدحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غيرت الصحون وهكذا إلى آخر الطعام، وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني على صحة صاحب العيد في أقداح طوال، ثم بعد الغداء يشـربـون القهوة في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا بالسكر والحليب، وفي الصباح منهم من يفطر عليها، ومنهم من يفطر على الشاي أو الشكولات، وفي المسـاء يشربون الحليب أو الليمون أو هكذا، والشاي لازم جداً في هذه البلاد

خصوصاً في السفر، فهو يقوي البدن وينعش الجسم، وفي أول شربة يمنع النوم لكن بعـد التعود ١٩١/عليه لا يضر، ويشربون الدخان في السيقان، ويشربون السيجار وتارة الدخان في الورق الملفوف، وندر شرب الشيشة إلّا عند الفرس، فهم المتوحدون في هذه الديار بتعاطيها، والعاملون بما قيل فيها:

هات اسـقنيَ التنبـاك من نرجيلة　　نغـمـاتهـا تغني عن القـانـون
تغني المـزاج عن العـلاج وربمـا　　يغنى بهـا الآسي عن القـانـون

«القانون الأول: آلة الموسيقى».

«والشـاني: كتاب ابن سينا في الطب، وقد اتفق لي جناس في القانون تامّاً ومركباً»، فقلت مواليا:

موال نعماني

في وصف حاجب على الألحاظ ألقى نون
سطرت نوبـة على السنـطير والقـانـون
يا اللي رضـابـك شفـا يروي عن القـانون
ارحـم متيم غدا جسـمـه يشـابـه عود
وزاد غرامـه ولا حدش لسـقـمـه يعـود
ما به صدود عن حبـيب وخـلف وعـود
ما به عذول في غرام زاد على الـقـانـون

قد استطردت في هذا الباب لأنه باب كيف مع أني ما خرجت عن القانون وإكـرام الضيوف في المسـاء بالشاي والدخان وأنواع الفواكه، وفي الحلوى وفي الصبح تارة بالقهوة والدخان، وإذا جاء الضيف فلم يجد صاحب البيت ربما قبلته امـرأتـه وجلست معه حتى يجيء زوجها، وإن كان معرفة لها ولا نكير في ذلك فللنساء المحل الأول، وهن المدبرات لأمور البيت، الملمات لشعث الزوج:

إذا لم يكن في منـزل المـرء حُرَّةٌ　　تدبـره ضاعت مصـالـح حالـه

ولهن على السفرة المجلس الأول، وأوّل ما يعطى الأكل لهن، وكذلك في الكنيسة، وفي مجالس الرقص، ويستلطف أن يأخذ الرجل بيد امرأة لإعانتها على المشي أو إصعاد السلالم، وربما قبلت أيديهن، وتارة يكون ذلك في القصر، فتأتي الضباط والكبار، ويقبلون يد الأميرة، والعادة طبيعة ثانية ولعنات القلوب ثانية، ١٩٢/ثم مراكبهم العربات الثمينة بمحلين أو أربعة مقفولة، وتارة مكشوفة، وهي الكاروصات المستعملة في الربيع والصيف غالباً، والدروشكي بمحل واحد واللنيكه بمحلين، وكل ذلك يوجد للكراء، إلّا أن الكبراء والأغنياء يقتنون ذلك ويتأنقون فيه، ويجر العربة فرسان أو أربعة، وأمّا الدروشكي فواحد، وهناك عربات كبيرة للسفر، وعربات لنقل الأمتعة في غاية الحقارة، وهناك عربات طريق الحديد يجرها البخار، وذلك إلى تسارسكيا سلو، وربما ركبوا الخيل خصوصاً أرباب السيف، وتارة تركب النساء الخيل، لكن حينئذ يلبسن برانيط الرجال ويسمين «أفرون»، وبنات القيصر مشهورات بذلك، وكذلك بنات الكبار، وفي أيّام الشتاء يركبن الجرّار، وهو عربة بلا عجل، لكن يزلقها الثلج فتمشي بالعجل وهو أسهل المركوبات، وفي أوّل هجوم الثلج يتسارع الناس إلى ذلك زرافات ووحدانا، ويسدون عن نفوسهم بذلك أحزاناً، وقلت:

في الثلج أغدو للصفا　　في عربات الزحلقة
فبتر بورغ كلها　　حصيرة مزحلقة

الفصل العاشر

في لسان الروس

أصله الصقلب، ولسان الروس غني جداً كالألسنة القديمة، وفيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدأ والخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، وكذلك الفاعل والمضاف إليه مفتوح تارة، المجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب وتارة

كالمبتدأ، والمُعطى له مضموم. . إلى غير ذلك مما فُصِّلَ في نحوهم، وفعل الكون لا يستعمل في الحال بل يحذف كما في العربي، فنقول: نا راض، يعني: أنا راضي، ١٩٣/وعندهم علامة المؤنث في الاسم والوصف تارة كالعربي، مثلاً: الكسـانـدره، يعني: اسكندره راضه يعني: راضية، وتسهل الترجمة من ألسنتنا الشرقية إليه، وبالعكس للموافقة في كثير من المعاني والتصورات، وأمثلتهم موافقة لأمثلتنـا كثيراً، وفي حروفهم الخـاء، وعندهم أصوات الحروف الغليظة كالصاد والطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوروبيين، ومما يوافق فيه العربي قولهم للشخص في الإخبار عن موت بعض الأشخاص «امر لك بالمعيشة زماناً طويلاً»، وهذا بالكلية مثل قولنا في هذا المعنى: «تعيش»، وفيه كلمـات كثيرة أخـذت من لسـان التـاتـار والنيمسـاوي والفـرنسـاوي، وتـركيبـه سهـل، فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل والفاعل إلى غير ذلك، ولا يستعملون للدلالـة على الآلة والواسطة ولا للدلالة على مَن له الشيء المسمى عندهم داتلني يعني المعطى له حرفاً، بل يدل عليه بتغيير الكلمة بنوع مخصوص، وأشعار الروس بديعة للغاية وبعضها كأشعارنا، وقلت مترجماً شعراً روسياً في مدح شجاع:

إذا ركب اللجّـات جاشت مياهها	وإن مرّ في طود تفـقـع جلده
وإن طاف ما بين البلاد تدهدهت	وتـرمي وراء السحب أبـراجَها يده

وقلت مترجماً في الغزل:

الـزهـر إن جدَّ لا ينمـو بغير هوا	والقلب إن شبّ لا يحيى بغير هوى

وقلت كذلك:

لأجـلهـا وحـدهـا الآفـاق نيّرةً	والبلبـل الليل قد غنّى على الزَّهر
كالنـد عَرفاً ومثـل البـان قامتهـا	لطيفـة مثـل وردٍ زِينَ بالـخفـر

سمـا الجنـوب التي تزهـو كواكبها تلوح من عينهـا الـزرقـاء للنـظر

١٩٤/ومما ينبغي أن يُتنبه له أن المترجِم من لسان لا بد أن يلاحظ ما يكون مقبولاً في اللسان الآخر، وإلاّ غيَّر كما فعلت في هذا الشعر الأخير، فإن الشاعر شبّه في الأصل القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروسي، مُستهجَن في العربي، فلذا غيَّرْتُه إلى البان، والمؤدَّى واحد، وهنا حبست عنان القلم، وله قلت:

يراعيَ كُفَّ الخـوض فالبحر زاخرٌ ولا تتجارى قد جرى منك ما كفى

والله أسأل، وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلاّ التبصير، وما مرامي إلاّ التذكير، وإن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.

قد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني في سنة ١٨٥٠ من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير:

محمد عياد الطنطاوي المصري ببتر بورغ

الفهـــارس

١ ـ الأعلام

٢ ـ الأمكنة الجغرافية

٣ ـ الأمم والشعوب والأقوام والطوائف

٤ ـ قوافي أشعار الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي

مواويل الشيخ محمد بن عياد الطنطاوي

يوسف الصيداوي

٥ ـ قوافي الشعر والشعراء

٦ ـ المصطلحات الحضارية

٧ ـ الوظائف والمناصب

٨ ـ المطعوم والمشروب والمشموم

٩ ـ الأزياء والملابس والقماش

١٠ ـ الأدوات والآلات

١١ - التربية والتعليم والثقافة

١٢ ـ كتب وعقود صلح

١٣ ـ الأمثال والأقوال

١٤ ـ الأوزان والمكاييل والمقاييس والنقود

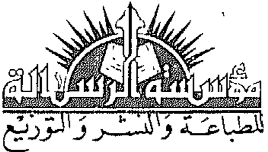
١٥ ـ المعامل والمصانع والمناجر:

١٦ ـ المعادن والأحجار

١٧ ـ الحيوانات والحشرات

١٨ ـ الظواهر الطبيعية والأمراض

الفهرس العام



مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقيا: بيوشران